الكتابُ الثانی

النبی ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يأيها النبي ، إنا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجا منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا ﴾ الأحزاب/ ٤٥ – ٤٨

تمهيد

١

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى كثير من سوره ـ يقول سبحانه :

(يأيها النبى ـ إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الأحزاب/ ٤٥ ـ ٤٦ .

ويقول سبحانه :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) النساء/٨٠ .

ويقول سبحانه :

(قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) آل عمران / ٣١ .

ومن أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله – ﷺ – أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى اتخاذ الرسول أسوة ـ فقال سبحانه :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله ـ واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب/ ٢١

بل أمرنا سبحانه ـ أن نأخذ ما آتانا ـ وأن ننتهى عما نهانا عنه ـ وهددنا إذا لم نلتزم ذلك ـ فقال سبحانه :

(وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ـ واتقوا الله إن الله شديد العقاب) الحشر/ ٧

أما السر فى ذلك فهو :

١ – أن الرسول – صلوات الله عليه – لاينطق عن الهوى . ولاينحرف عن صراط الله المستقيم ولقد أقسم الله تعالى على ذلك . فقال سبحانه :

(والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) النجم/ ١ – ٤ .

٢ – كان رسول الله – صلوات الله عليه – فى جميع أحواله : حركة وسكوناً . إشارة ونطقاً . قلباً وقالباً – يمثل القرآن الكريم . وقد كان صلوات الله عليه . تطبيقاً للقرآن . لقد لبس القرآن ظاهراً وباطناً . لقد كان قرآناً .

ولقد وصفته السيدة عائشة . رضى الله عنها . وصفاً دقيقاً . حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : «كان خلقه القرآن »

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة . وكان قدوة . وكان على خلق عظيم . ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى إذ يقول :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/ ٤

٢

والحق أننا حينما نريد أن نكوِّن صورة واضحة تامة عن رسول الله . صلوات الله عليه – فإن الطريق الوحيد لذلك : إنما هو الإحاطة بالقرآن إحاطة واضحة تامة . والإحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان . بل ليست بممكنة : فالقرآن فى كل يوم يتفتح عن معان جديدة للإنسانية . ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر . وهذه المعانى الجديدة : إنسانية عامة أو فردية شخصية – إنما هى إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والعكس أيضاً صحيح : فإن المتدبر المتأمل فى الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة . والأحاديث المعتمدة – يفهم عن الرسول . صلوات الله عليه كل يوم جديداً . وهذا الفهم إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم .

لقد امتزج الرسول . صلوات الله عليه . بالقرآن – كما قدمنا – روحاً . وقلباً .

وجسماً ؛ وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً ، فكان صلوات الله عليه قرآناً يسير فى الناس ، وكان القرآن روحاً ينتقل ، وكان قلباً ينبض ، وكان لساناً ينطق بالهداية والإرشاد .

ولقد كان صلوات الله عليه حريصاً كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الإسلامية – القرآن . لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله عليه من الأمة فيقول سبحانه :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم . عزيزٌ عليه ماعنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) التوبة / ١٢٨ . صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله .

ويتحدث ، صلوات الله عليه ، عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول :

« مثلى ومثلكم – كمثل رجلٍ أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم . عن النار ، وأنتم تفلتون من يدى » .

هذه هى صلة الرسول – ﷺ – بربه وهذه هى صلته بأمته .

ولقد ارتفع صلوات الله عليه إلى السماء . بل تجاوزها إلى سدرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى . لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى ، وتجاوز بذلك النهايات الكونية ، لقد كان فعلاً أدنى من قاب قوسين . فانغمس فى الأفق الأعلى ، وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به ، وهى الصلاة ، ثم . . ثم انبسط إلى الأرض سراجاً منيراً ، رءوفاً رحيماً هادياً يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله صلوات الله عليه إلى السماء ، ثم عاد إلى الأرض ، أقسم بالله لو صعدت إلى السماء لما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله عليه نبى ورسول ؛ فهو متصل بالله دائماً : إنه فى السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، ويؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة . إنه كان على حد تعبير القرآن : (بشراً رسولاً) الإسراء/ ٩٣ فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره ، إنه مع الناس

بكلمة الله ورسالته . إنه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : إنه دائماً مع الله . أو يمكننا أن نقول : إنه – منذ اللحظة الأولى للبعثة – : لم ينزل إلى الأرض قط . وإنما كان دائماً مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله عليه يبيت عند ربه ، يقول ﷺ : «لست كهيئتكم : أبيت عند ربى . . »

٣

(قل : إنما أنا بشرٌ مثلكم ، يوحى إلىّ) الكهف/ ١١٠

إنه ، صلوات الله عليه : «بشر» ، ومايحول فى خلد مسلم أبداً أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله عليه «بشر يوحى إليه» .

ومايتأتى أبداً أن يوحى الله إلى بشر إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

ومنتهى القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كُلِّهم

٤

وبعض الناس – حينما يقرأ القرآن الكريم فتمر عليه الآية الكريمة : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) – يقف عند كلمة : «بشر» فيحاول التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ، ويبرزها ، ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً ، لايتناسب أبداً وقوله تعالى : (يوحى إلىّ) ، بل إنه فى اندفاعته الهوجاء ينسى (يوحى إلى) ويهملها إهمالاً .

إنه ليس بنادر فى العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس ، فيتحدث عن الرسول صلوات الله عليه وعن خطئه – معاذ الله – فى الرأى ، وعن إصابته فيه ، ويسير هذا البعض فى حديثه أو فى كتابته مستنتجاً ومستنبطاً وحاكماً ، وينسى فى كل ذلك :

(ومايتطق عن الهوى) النجم/ ٣ وينسى فى كل ذلك : (يوحى إلى) ، وينسى «لست كهيئتكم » وينسى : (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) النور/ ٦٣ .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وإن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله صلوات الله عليه – وهو على صواب دائماً – إنما يتخذ الحل الذى يناسب مع ماحلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه – سبحانه – من الرحمة ، وهو الحل الذى يناسب طابع الرسالة الإسلامية العام .

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) الأنبياء/ ١٠٧

والله ، سبحانه ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول – صلوات الله عليه – مع العدالة الحاسمة ، فعدل عن ذلك إلى الرأفة الرحيمة . . إن الله ، سبحانه وتعالى ببيانه ذلك إنما يمدح الرسول ، صلوات الله عليه ، ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه ، صلوات الله عليه .

ولم يلغ الله – سبحانه – اتجاهاً عامًّا سار فيه الرسول . ولم ينقض قضية كلية أقرها . صلوات الله عليه . ولم ينف مبدأ أثبته رسوله فما كان صلوات الله عليه يسير إلا على هدى من ربه وعلى بصيرة من أمره . وقد شهد الله له بذلك حيث قال .

(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله . .) الشورى/ ٥٢ ، ٥٣ .

وما فعل الله فى كل ماتمسك به المنحرفون ، وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول ، صلوات الله عليه ورأفته : أى أنه – سبحانه – كان يبين فى هذه المواطن فضله ، صلوات الله عليه ، وأنه – كما وصفه – سبحانه : على خلق عظيم ، والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها .

ولنضرب لذلك مثلا : إن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيراً عن قوله ، تعالى . (عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ؟) التوبة / ٤٣ . ويقذفون مباشرة بقولهم : إن العفو لايكون إلا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول : إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ، ومنه قولهم مثلا : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟

عفا الله عنك ، لم تعنى نفسك فى سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول رضى الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق .

إن الآية القرآنية من هذا الوادى .

وبضم هذه الآية الكريمة إلى أختها التى فى سورة النور : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذَنْ لمن شئت منهم) آية : ٦٢ تجد المعنى واضحاً جليًّا ، وهو أن الله – سبحانه – فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله عليه ، فى أن يأذن لهم أو لايأذن .

ليس النبى إذن معاتبا بهذه الآية – وحاشاه – بل كان ﷺ مخيراً ، فلما أذن لهم ، أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لاحرج عليه فى الإذن لهم إنها آية مدح للرسول غاية فى الرقة . . ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة – كان الرسول صلوات الله عليه يصدر فى أحكامه ، وما كان فى ذلك إلا متبعاً لقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء/ ١٠٧ .

وهكذا الأمر فى كل مايمارى فيه المارون .

٥

ومع ذلك فإننا نزيد الأمر وضوحاً فى الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى إلى » لأهميته الكبرى ، فنقص القصة التالية ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندرى – رضى الله عنه – فى شرحه لقصيدة ولى الله : « أبو مدين » رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد – رضى الله عنه – وقال :

هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟

فأشير إلى شيخ كبير فى السن كان حاضرا هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد ؟

فقال : نعم سمعته قال : «من زارنى لاتحرقه النار»

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى – ﷺ – وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى – ﷺ – إنما رأى «يتيم أبى طالب» ولو رآه – ﷺ – لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، أى أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه «يتيم أبى طالب» : فلم تنفعه تلك الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد – رضى الله عنه – وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبى – ﷺ – وإنما رأى «يتيم أبى طالب»

هذه النظرة لأبى جهل هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها .

والمؤمنون بحمد الله لايقعون فى هذا الإثم متعمدين ، وإنما يتسلل هذا الإثم إلى بعض النفوس فى صورة لاشعورية عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول – صلوات الله عليه – وكأنه لاشىء فيه غير البشرية .

ومن الغريب : أنه – حينما يتحدثون عن البشرية ، ويركزون عليها – يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة لأبى جهل إنما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ، ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر – فى هذه النزعة – وهو أبو جهل . وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة أو يتابع أبا جهل ، وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولامتطورين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً مضت يتزعمهم فيها أبو الجهل بكله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !

ليس هناك إذن اجتهاد وخطأ وصواب ؛ وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله مبيناً طبيعة رسوله الكريمة وفطرته الرحيمة ورأفته الواضحة ، ويبين فى الوقت نفسه أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها لفساد فطرهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على « بشر » أو على « يوحى إلى » على حسب قوة شعوره الدينى وضعفه : فالذى لا إيمان له لايرى إلا البشرية ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على « يوحى إلى » كلما ازداد الإيمان ؛ حتى يصل الإنسان إلى ألا يرى أو لايكاد يرى إلا « يوحى إلى » صلوات الله وسلامه عليك ، ياسيدى يارسول الله .

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس طرف : « بشراً » أو « قل : إنما أنا بشر مثلكم » .

وطرف : « يوحى إلى » أو « رسولاً » وبين الطرفين يتأرجح عدد لايحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسموًّا .

وإن مقياس الإيمان قوة وضعفاً مقياس درجة الإيمان الذى لايخطئ ، إنما هو ماوقر فى القلب أو غلب عليه ، من « البشرية » أو من : « يوحى إلى » إنهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان . .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهمو واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

٦

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لايرى ، أو لايكاد يرى إلا : « يوحى إلى » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟

ماهى النظرة التى تنأى بنا عن : « يتيم أبى طالب » لتقربنا من : « الأسوة » ؟ كيف ينبغى أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله عليه ؟

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله – صلوات الله عليه – يلزمها أن

يصل الإنسان إلى مستواه – صلوات الله عليه – أو إلى مايقرب من مستواه وذلك لايتأتى .

بيد أنه إذا استحال ذلك فإنه من الميسور أن نورد صورتين : إحداهما جاهلية والأخرى إسلامية ، والصورتان لسيدنا عمر رضى الله عنه :

أما الصورة الأولى : فإنها « يتيم أبى طالب » كان سيدنا عمر يراها قبل أن يهديه الله للإسلام ، وأراد سيدنا عمر أن يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لاتتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله صلوات الله عليه : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بعمرو بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر ، فهداه الله للإسلام ، ولازم الرسول صلوات الله عليه ، فناله من بركاته ، ومن خيره ماهيأه لأن يكون الخليفة الثانى للأمة الإسلامية أجمع ، وأن يعز الله الإسلام به فى حياة الرسول صلوات الله عليه ، وبعد وفاته .

إن سيدنا عمر ، هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذى كان إذا سلك طريقا سلك الشيطان طريقا آخر خشية منه ورهبة ، والذى نزل القرآن أحياناً مضدقاً لما رآه سيدنا عمر ، صاحب : « ياسارية الجبل » – يرسم لنا صورة إسلامية لسيده ، وحبيبه ، وصديقه ، ونبيه ، صلوات الله عليه .

ولكن هذه الصورة هى صورة سيدنا عمر إنها تناسب مستوى سيدنا عمر ، وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه ؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا على ، رضى الله عنه ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله عليه :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/٤ .

وما كانت كلمة السيدة عائشة – رضوان الله عليها – « كان خلقه القرآن » إلا تفسيراً لما أشارت إليه الآية الكريمة ، أيمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ؟ أستغفر الله وأتوب إليه .

ولنعد إلى الصورة التى حاول رسمها صاحب : «ياسارية الجبل» لنعد إليها لنثبتها شارحين لبعض حوادثها ، موضحين لبعض أنبائها ، وسنجعل الإيضاح بين أقواس .

بعد موت رسول الله – ﷺ – سمع سيدنا عمر يبكى ويقول : «بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبراً ، لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها : يروى البخارى ومسلم وكتب السنة كلها تقريباً وكتب السيرة» «حادث حنين الجذع» بعدة روايات وننقل هنا إحدى روايات البخارى .

عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : «كان النبى ﷺ ، يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحن الجذع ، فأتاه ، فمسح يده عليه»

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده – أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل» .

(من يطع الرسول فقد اطاع الله) النساء/٨٠ .

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال عز وجل :

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم» الأحزاب/٧ .

بأبى أنت يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده – أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون .

(يقولون ياليتنا أطعنا الله ، وأطعنا الرسولا) الأحزاب/٦٦ .

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله ، حجراً تتفجر منه الأنهار ليس ذلك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء ، صلى الله عليك .

إن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله عليه ، لم يحدث مرة واحدة ؛ وإنما حدث عدة مرات ، رواه البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة فى ظروف مختلفة ؛ مما يدل على كثرة جدوثه ،

وننقل هنا إحدى روايات الإمام البخارى :

عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : « عطش الناس يوم الحديبية . والنبى – ﷺ – بين يديه ركوة . فتوضأ فجهش الناس (فأسرعوا وتكاثروا) نحوه فقال : مالكم » ؟

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولانشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده فى الركوة . فجعل الماء يثور بين أصابعه . كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا .

قلت : كم كنتم ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا . كنا خمس عشرة مائة) .

بأبى أنت وأمى يارسول الله : لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه ثم وصلت إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك : (سنتحدث ، فى فصل خاص عن الإسراء والمعراج) .

بأبى أنت وأمى يارسول الله : لئن كان عيسى ابن مريم ، أعطاه الله إحياء الموتى – ماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك ، وهى مشوية فقالت لك الذراع : (لا تأكلنى فإنى مسمومة) .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

أخبرنا سعيد بن محمد الثقفى . عن محمد بن عمرو . عن أبى سلمة قال : « كان رسول الله – ﷺ – لايأكل الصدقة ، ويأكل الهدية . فأهدت إليه يهودية شاة مصلبة . فأكل رسول الله – ﷺ – منها هو وأصحابه . فقالت : إنى مسمومة ، فقال ، لأصحابه : ارفعوا أيديكم . فإنها قد أخبرت أنها مسمومة » قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول – ﷺ – فقال : « ماحملك على ماصنعت ؟ » فقالت : أردت أن أعلم : إن كنت نبيًّا لم يضرك . وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك ! قال : فأمر بها فقتلت » ا هـ .

بأبى أنت وأمى يارسول الله . لقد دعا نوح . على قومه فقال :

(رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) نوح/ ٢٦

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا : فلقد وطئ ظهرك : تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبى معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان – وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لايعلمون » .

(لقد دمى وجهه ، صلوات الله عليه ، وكسرت رباعيته فى (غزوة أحد) ، روى ذلك البخارى ومسلم ، أما حديث :

(اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون) فقد رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد اتبعك فى قلة سنك ، وقصر عمرك مالم يتبع نوحاً ، فى كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل .

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لو لم تجالس إلا كفئاً لك ماجالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئاً لك مانكحت إلينا .

ولو لم تواكل إلا كفئاً لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعاً منك – ﷺ !

ومن الطريف : أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول – صلوات الله عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال ، دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لايشوب الصورة أى مطعن .

هذا الرجل هو : « هرقل » .

أتاه كتاب رسول الله صلوات الله عليه – يدعوه إلى الإسلام ، فلم يهمل الكتاب ، ولم يمزقه ؛ وإنما قرأه فى عناية وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب ، فسأل هل كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول ؟ فقيل له : إن فى المدينة تجاراً من مكة ، يعرفون محمداً باعتباره من مواطنيهم ، فأمر بإحضارهم ، وكان منهم أبو سفيان :

وسأل هرقل عن أقربهم نسباً إلى الرسول ، فكان أبا سفيان ، فقربه منه ، وأدناه ، وقال لهم : إنى سائله عن أمور فإن كذبنى فكذبوه

يقول : أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً ، لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى لأنها واضحة من النتائج التى انتهى إليها هرقل .

إن هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة بدأ – عن طريق الترجمان – يقول لأبى سفيان على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : سألتك عن نسبه :

فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

فكذلك الرسل : تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت : أن لا

قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟

فذكرت : أن لا

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم : أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت : أن لا

وكذلك الرسل : لاتغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف . .

فإن كان ماتقول حقًّا فسيملك موضع قدمى هاتين !

وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

هذه – الصورة التى كوّنها هرقل بمنطقه ، ويمكن أن يكونها أو يكون مثيلات لها كل إنسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ، وكل إنسان يصدق الله والحق : لابد أن ينتهى بما انتهى إليه هرقل ، من قوله «لو كنت عنده لغسلت عن قدمه» ، وإنما **يغسل عن قدمه من أجل : «يوحى إلى» إذ أن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن** يكون أهلاً لذلك :

بيد أن هذه النهاية التى انتهى إليها هرقل إنما هى الشعار الدائم الذى لاينتهى بانتقال الرسول إلا الملأ الأعلى : فالرسول حى بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه ، والغسل عن قدمه الآن ، أو بتعبير آخر : احترامه – إنما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديراً يناسبُ اصطفاء الله له ، ﷺ .

ولقد ركز هرقل نوعاً ما على الصدق والإخلاص ، والواقع أن صورة الصدق والإخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول ﷺ ، ولم تُعْمِه عصبية ، أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والإخلاص كانت سمة من السمات التى اتصف بها

الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته ، صلوات الله عليه . لقد لازمته طيلة حياته . لقد كان مجرد الخبر يلقيه صلوات الله عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لامحالة : فهذا أمية بن خلف – عدو لدود – يتلاحى هو وسعد بن معاذ رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ فى حدة مناقشة : لقد سمعت رسول الله ، ﷺ يقول : إنه قاتلك ويضطرب قلب أمية بن خلف ، ويسأل فى لهفة وضعف وتخاذل : أهو قال ذلك حقًّا ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط فى يده ، وقال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . وقتل أمية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بين حينما أعلن رسول الله ، صلوات الله عليه إلى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تصدقونى ؟ »

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التى لمسوها فيه ، لقد قالوا : « نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وماجربنا عليك كذباً قط » . .

وصورة أخرى ، صورة لم يرتب لها ترتيب مروى ، ولم يؤد إليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ولا رفقة قريبة ، وإنما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

إنها الصورة التى كونتها عنه ، صلوات الله عليه أم معبد الخزاعية . وهى صورة لاتخص الجانب المعنوى منه ، وإنما تتصل – على الأخص – بالجانب الظاهر . وأردنا أن نثبتها هنا ؛ لنثبت بها : « هيئة » وظاهراً بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والإجلال ، إن الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف إنها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة يرافقه أبو بكر رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ودليلهم : عبد الله بن أريقط .

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة ، قوية الأخلاق عفيفة ، تقابل الرجال ، فتتحدث إليهم وتستضيفهم . وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم

يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . فقد كانت سنة من السنين العجاف .

فقالت لهم :

والله لو كان عندنا شيء ماأعوزكم القرى ؛ فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى ركن الخيمة فقال :

« ماهذه الشاة ، يا أم معبد ؟ » قالت :

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .

فقال صلوات الله عليه : « هل بها من لبن ؟ » فقالت :

هى أجهد من ذلك .

قال : « أتأذنين أن أحلبها ؟ »

قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى إن رأيت حلباً .

فدعا رسول الله ، ﷺ ، بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :

« اللهم بارك لها فى شاتها »

فامتلأ ضرع الشاة ، ودر لبنها ، فدعا بإناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ، ﷺ آخرهم ، وقال :

« ساقى القوم آخرهم »

فشربوا جميعاً مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه مرة أخرى عوداً على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزاً عجافاً هزلى ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

« من أين لكم هذا ولا حلوبة فى البيت » ؟

قالت : لا ، والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه ، كيت وكيت .

قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطلب ، صفيه لى يا أم معبد ؟

قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تزر به صعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ،

فى عينيه دَعَج ، وفى أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) وفى صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، فى عنقه سَطَح (ارتفاع وطول) ، وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، حلو المنطق فصل ، لانزر ولا هذر (لاعىّ فيه ولاثرثرة فى كلامه) أجهر الناس ، وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لاتشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر ، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه فى طاعته) ، محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا منفد (غير مخرف فى الكلام)

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ماذكر ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلاً .

هذه هى الصورة التى حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمرو بن العاص ، فإنه يقول ، فى صراحة وصدق — عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضى فخنقته العبرات وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة فى صورة مؤثرة : «ماكان أحد أحب إلى من رسول الله ، ﷺ ، ولا أجل فى عينى منه ، وماكنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ؛ لأنى لم أكن أملأ عينى منه ! » .

٧

والآن نريد أن نتساءل : ماهى الصورة التى نريد أن نرسمها فى هذا الكتاب ؟

ونريد أن نقول : إن هذه الصورة التى نحاول رسمها ليست صورة مبتدعة ولامخترعة ؛ إنها صورة نحاول جاهدين ، أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .

بيد أننا نعود فنقول : إننا لانرسم صورة كاملة : فالصورة الكاملة لايتأتى لمثلنا أن يرسمها ، ونحن هنا إنما نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا معترفين

بعجزنا ، ولكن أملنا كبير فى أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع ، وأن تكون على مافيها من عجز وقصور ممثلة لبعض مانكنه لسيد ولد آدم : من حب وإيمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذه الزوايا التى نحاول رسمها ، فإنه لا يعزب أبدا عن بالنا قول إمامنا البوصيرى – رضى الله عنه ، عن الرسول ، صلوات الله عليه – هذه الأبيات التى تعبر عن الحقيقة تعبيراً صادقاً :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... للقرب والبعد فيه غير مُنفَحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتُكِل الطرف من أمَمِ
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالْحُلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

الفصل الأول

النسب الشريف

أبان مولده عن طيب عنصره عن طيب مبتدإ منه ومختتم

يقول صلوات الله عليه فيما رواه الإمام مسلم :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وهو صلوات الله عليه : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، بن قصى . .

ويصل نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام :

ولا نريد هنا أن نتحدث عن النسب الشريف من إبراهيم ، عليه السلام إلى محمد صلوات الله عليه ، وإنما نريد أن نتحدث عن نسبه القريب بادئين من قصى .

قصى :

كان قصى عظيم الشرف كثير المال ، وكانت خزاعة فى عهده ، وبنو بكر يتولون البيت الحرام وأمر مكة . ورأى قصى أن قريشاً إنما هى الوارث الشرعى لإسماعيل فهى فرعته[1] وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، وقال : نحن أولى بهذا منهم .

وأخذ قصى فى تدبير الأمر وإحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة ، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان قتالا شديداً ، وكانت الغلبة فى النهاية لقصى .

ولما فرغ من نفى خزاعة وبنى بكر عن مكة تجمعت إليه قريش – على حسب

(١) سلالاته .

ما يروى ابن سعد فى « طبقاته الكبرى » فسميت يومئذ قريشاً[١] لحال تجمعها .

ومما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

« كان قصى بن كلاب أول ولد كعب بن لؤى ، أصاب ملكاً ، أطاع له به قومه . فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها ، فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب ، أو مشورة ، فيها ينوبهم ؛ حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع ، فما يشق درعها إلا فيها ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا فى قوم غيرهم إلا فى دار الندوة : يعقده لهم قصى . ولا يُعذرُ[٢] لهم غلام إلا فى دار الندوة ، ولا تخرج عير[٣] من قريش فيرحلون إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له ، وتيمناً برأيه ، ومعرفة بفضله ؛ ويتبعون أمره كالدين المتبع : لا يعمل بغيره فى حياته ، وبعد موته ، وكانت إليه الحجابة[٤] ، والسقاية[٥] والرفادة[٦] ، واللواء[٧] ، والندوة[٨] ، وحكم مكة كله ، وكان يعشر[٩] من دخل مكة سوى أهلها .

قال : وإنما سميت دار الندوة ، لأن قريشاً كانوا فيها : أى يجتمعون للخير وللشر ، والنَّدى : مجمع القوم : إذا اجتمعوا[١٠] .

وقسم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش بحى ، وضاقت مكة بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر فى الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر فى الحرم ، فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : إنما تقطعونه لمنازلكم ولخططكم ؛ بهلةُ[١١] الله على من أراد فساداً ، وقطع هو بيده ، وأعوانه ، فقطعت — حينئذ — قريش ، وسمته : « مجمعاً » لما جمع من أمرها ، وتيمنت به وبأمره .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها — دار الندوة ، والحجابة ، والسقاية ،

---

(١) قيل فى سبب التسمية آراء غير ذلك .
(٢) لايخن .
(٣) قافلة .
(٤) سدانة البيت .
(٥) سقيا الحجيج .
(٦) إطعام الحجيج .
(٧) للحرب .
(٨) للمشورة .
(٩) يأخذ منهم العشر .
(١٠) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠ .
(١١) أى لعنته .

واللواء ، والرفادة – أكبر أبنائه سنا ، وهو : عبد الدار .

وكان من أبنائه : عبد مناف .

عبد مناف :

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف – أن رسول الله – ﷺ اقتصر عليه حين أنزل الله تعالى ، عليه :

(وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين) الشعراء /٢١٤ .

فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع إليه بنو عبد مناف تلبية لندائه ، قال لهم :

« إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإنى لا أملك لكم من الله حظًا . ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا :

لا إله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصى ستة نفر ، وست نسوة ، وكان من بينهم ، هاشم بن عبد مناف ، واسمه : عمرو وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، من أجل أن تختلف إلى الشام آمنة مطمئنة .

وهاشم هو صاحب إيلاف قريش ، وإيلاف قريش هو دأبها وعادتها : لقد كان هو أول من سنَّ الرحلتين ، لقريش ، ترحل إحداهما فى الشتاء إلى اليمن ، وإلى الحبشة : إلى النجاشى فيكرمه ويهدى إليه الهدايا ، ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزة وربما بلغ : أنقرة ، فيدخل على قيصر ، فيكرمه ويهدى إليه الهدايا [1]

ثم أصابت قريشاً سنوات جدب عجاف ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام ، فأمر بخبز كثير ، فخبز له ، فحمله فى الغرائر على الإبل ، حتى وافى مكة ،

(١) انظر طبقات ابن سعد .

فهشم ذلك الخبز : يعنى : كسره ، وثَرَده ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطهاة ، فطبخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة . فأشبعهم وكان ذلك أول الحياة بعد السنة التى أصابتهم ، فسمى بذلك : هاشماً .

وكان هاشم رجلا شريفاً طموحاً ذكياً ، ولم يكن يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف فى مكة : من الحجابة ، واللواء ، والرفادة ، والسقاية ، والندوة . فحمل اللواء ضد بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للقتال ، وعبئت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى الناس بينهم للصلح . واصطلحوا يومئذ على أن يُولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة . وكان رجلا عريض الثراء ، وكان إذا حضر الحج قام فى قريش . فقال :

« يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة . ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزَورَه .

وكان هاشم يأمر بخياض من أدم [1] ، فتجعل فى موضع زمزم ، ثم تستقى فيها الماء من البئار [2] التى بمكة ، فيشربه الحاج ؛ وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ؛ وكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق والتمر : ويجعل لهم الماء ، فيسقون بمنى والماء يومئذ قليل فى حياض الأدم إلى أن يصدروا من منى فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم .

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف : أربعة نفر . كان منهم شيبة الحمد ، وهو : عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة ، والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده : يطعم الحاج ويسقيه فى حياض من أدم إلى أن حفر زمزم ، فأصبح ، يسقى الحاج من زمزم ، ويحمل الماء من زمزم إلى عرفة ، فيسقيهم به .

(١) حياض الأدم : هى حياض من جلد . (٢) الآبار .

وكانت زمزم سقياً من الله .

لقد أتى عبد المطلب فى المنام مرات . فأمر بحفرها ، ووُصِف له موضعها ، فقيل له :

« احفر طيبة » .

فقال . وما طيبة ؟

فلما كان الغد أتاه ، فقال : احفر برَّة .

قال : وما برة ؟

فلما كان الغد أتاه وهو نائم فى مضجعه ذلك . فقال : احفر المضنونة .

قال : وما المضنونة ؟

أبن لى ما تقول .

فلما كان الغد أتاه فقال : احفر زمزم .

قال وما زمزم ؟

قال : لا تنزح ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم .

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته ، وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء ، فكانت : زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكام قريش ، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها ، كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة [١] .

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجهاً ، وأمدهم جسماً ، وأحلمهم حلماً ، وأجودهم كفاً ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، لم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى مات [٢] » .

---

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) انظر طبقات ابن سعد .

عبد الله :

أما عبد الله والد الرسول صلوات الله عليه - فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد عبد المطلب وكان شعاره الذى التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :

« أما الحرام فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « إنى لأعرف فيك نسك أبيك » .

وإذا نظرنا إذن إلى رسول الله ، ﷺ من ناحية والده وأسلافه ومن ناحية والدته وأخواله - فإننا نجدهم - خُلُقا وعراقة أصل - من أشرف بيوت مكة وأكرمها ، وأسماها بشهادة المؤرخين جميعاً ، فكان صلوات الله عليه ، كما يقول ابن هشام :

« أوسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً من قبل أبيه وأمه » .

مولده :

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول :

« ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء ، إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى وتعود . وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان ، فقال :

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى .

فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين .

قالت : فكان ذلك مما أيقن عندى الحمل ، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى ، فقال :

« قولى : أعيذه بالْواحدِ الصَّمَد مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسدٍ » .

قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائى ، فقلن لى : تعلقين حديداً فى عضديك ، وفى عنقك ، قالت : ففعلت .

قالت : فلم يكن تُرِك عليّ إلا أياما فأجده قد قطع فكنت لا أتعلّقه .

ويقول : أبو جعفر محمد بن على : « أمرت آمنة وهى حامل برسول الله ، ﷺ أن تسميه : « أحمد »

ورأت أمه ، حين ولدته كأن نوراً سطع منها أضاءت له قصور الشام .

وولد صلوات الله عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد ، لما أرادته الحكمة الإلهية : من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور .

كان ميلاده تمهيدا لذلك بمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى فى هذه الفترة التى سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام بعنايته ورعايته ، ليكون أهلا ، لأن يحمل أعظم رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للإنسانية أجمع المعنى الصحيح فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله ، وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص فى المجتمع : حاكماً كان أو محكوماً ، وزوجا كان أو أباً أو ابناً ، أو أخاً ، أو رئيساً فى العمل أو عاملا . . إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته : فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

ومنذ ميلاده صلوات الله عليه ، بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف . وترمز إلى ذلك كتب السيرة النبوية ، برموز جميلة فتحدثنا :

« إنه فى ليلة ميلاده ﷺ – غاضت بحيرة ساوى ، وتصدع إيوان كسرى ، وخبت نار الفرس » .

أما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والأيام .

إن عمد الشرك هذه والضلال والانحراف ، والظلم والاستعباد – بدأت تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول ﷺ ، وأصبح أمر النور ، والهداية ، والرشاد – وشيك الظهور والانتشار .

وسمى المولود : « محمداً » .

أما سبب هذه التسمية فإنه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له :

« ما سميت ابنك ؟ »

فقال : « محمداً » .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم وذلك – على حسب مايرى السهيلى لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب – وقد ذكر حديثها على القيروانى ، فى كتاب : « البستان » .

قال : كان عبد المطلب قد رأى فى نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى الشرق ، وطرف فى الغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها . فقصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه محمداً ، وسمته أمه من قبل : أحمد ، فهو أحمد وهو محمد ، ﷺ .

ولقد تحدث الرسول ، صلوات الله عليه ، فيما بعد عن أسمائه ، فقال فيما رواه الإمام أحمد :

« إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحى به الكفر ، وأنا العاقب »

وقال فيما رواه الإمام أحمد أيضا :

«أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبى الرحمة ، ونبى التوبة ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الملاحم » .

وكان من عادة العرب ، أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ، فيرضعوهم فى الصحراء المنطلقة مكاناً وجواً ، ليشبوا فى صحة تامة ، جسماً وعقلا ، ومن أمثالهم : « العقل السليم فى الجسم السليم » .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء فى مكة ، وهنا نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة ، وعما صادفت فيها ذهابا وإيابا ، وعما رأته من بركات رسول الله ، صلوات الله عليه ، لقد كانت تقول :

« إنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد ابن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وهى فى سنة شهباء لم تبق لها شيئاً » .

قالت : فخرجت على أتان لى قرماء معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة ومانام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، وما فى ثدىي مايغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمَّت [1] بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة ، نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله محمد ﷺ ، فتأباه إذا قيل لها : « إنه يتيم » وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ؛ فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك ؛ فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعا غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، والله ، لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا بها حافل . فحلب منها ؛ وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمين والله يا حليمة . لقد أخذت نسمة مباركة .

---

(١) جاءت بما تذم عليه .

فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من جمرهم حتى أن صواحبى ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ويحك أربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها !

فأقول لهن : بلى ، والله إنها لهى هى .

فيقلن : والله إن لها لشأناً .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله ، أجدب منها ، فكانت تروح على حين قدمنا بهم معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ولكنه صلوات الله عليه لم يمكث عندها عامين فقط : ذلك أنها على رأس العامين ذهبت به إلى مكة ، لتراه أمه وليراه جده ثم عادت به أشد ما تكون حرصاً عليه وعلى العودة به .

أخذت حليمة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بنى سعد مرة أخرى ، وليس هناك من غرابة فى أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل .

إن الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجاوب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفى على المرافقين لهم بهجة ونشاطاً .

فلا غرابة إذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها ، وتنشط دوابهما ، وأن تسير الرحلة فى رخاء وأن يكون محمد فى براءته وطهارته وفى طفولته الباسمة ونضرته المتألقة — هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد بيت حليمة بهجة وسروراً . ويدب النشاط فى جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه . ويبارك الله فى كل شىء فيه . وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة . فيزيد عطفها على محمد . ويزيد حنانها عليه . فينمو فى جو من الرحمة والود والحنان . وينغرس كل ذلك فى نفسه . ويمتلئ قلبه الناشئ . ببذور من أسمى العواطف والشيم .

ويتحقق منذ طفولته — بل وإلى أن تنتهى به الحياة — ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما توفى عبد الله قالت الملائكة :

« إلهنا وسيدنا . بقى نبيك يتيماً »

فقال الله تعالى : « أنا له حافظ ونصير » .

الفصل الثانى

نبى التوبة

عن حذيفة ، رضى الله عنه ، قال فيما رواه الإمام أحمد : إن رسول الله ، ﷺ ، قال عن نفسه :

« إنه نبى التوبة » .

وللتوبة عند الرسول صلوات الله عليه ، وفى الجو الإسلامى على وجه العموم – شأن كبير : ذلك أن التوبة إنما هى تصفية للنفس ، وتزكية للروح ، ونتيجتها الإخلاص .

وأهمية الإخلاص إذا نظرنا إلى الفرد ، أو نظرنا إلى المجتمع – لا تخفى على أحد .

وإذا نظرنا إلى حياة الرسول صلوات الله عليه من زاوية التوبة والإخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح – فإن أول ما يفجؤنا من ذلك : إنما هو هذا الحادث الذى ترويه كتب السيرة تحت عنوان « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله عليه منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان صلوات الله عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان – على ما يروى الإمام مسلم – أتاه جبريل ؛ فأخذه فضجعه ، فشق عن قلبه ؛ فاستخرج منه علقة ، فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعنى مرضعته : أن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، كان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر : فقد روى الإمام أحمد وابن حبان ، والحاكم ، وابن عساكر ، عن أبى بن كعب – أن أبا هريرة رضى الله عنه ، كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ، ﷺ ، عن أشياء ، لا يسأله عنها غيره ، فقال :

« يا رسول الله ، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة » فاستوى رسول الله ، ﷺ ، جالساً وقال :

« لقد سألت أبا هريرة » .

إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟

قال : نعم .

فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لاأجد لأحدهما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه اضجعه ، فأضجعانى بلا قصر [١] ولا هصر [٢] وقال أحدهما لصاحبه :

« افلق صدره »

فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه ، فيما أرى بدون دم ولا وجع . فقال له : « أخرج الغل ، والحسد ؛ فأخرج شيئا ، كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها فقال له :

« أدخل الرأفة والرحمة » فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى ، فقال : أغد وأسلم .

« فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير » .

فلما جاوز صلوات الله عليه الخمسين أتاه آت ، على حين كان فى الحطيم أو فى الحجر مضطجعاً بين النائم واليقظان ، أتاه ، فشق عن صدره على حسب ما يروى البخارى ومسلم — واستخرج قلبه :

« ثم أتى بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبى ثم حُشى ثم أعيد » .

وتكرر المعراج ، فتكرر شق الصدر ، فعن أبى بن كعب — فيما رواه الإمام

---

(١) القصر : الإجبار .

(٢) الهصر : ثنى العمود من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى .

أحمد ، والإمام مسلم – أن رسول الله – ﷺ قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه » .

ولا يعنينا هنا لا فى قليل ولا فى كثير أن نجارى الماديين فى جدلهم ، فيما يتعلق بشق الصدر ، فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان .

والمغزى : أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد رويت فى كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت أيضا كتب السيرة ، هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله – سبحانه وتعالى – برسوله ﷺ منذ طفولته المبكرة ، وأن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى – وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين – أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والإخلاص أو – بتعبير آخر – بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول – صلوات الله عليه واستخرجوا حظ الشيطان منه .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملئوه رأفة ورحمة ، فكان صلوات الله عليه رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملئوه إيماناً .

ثم شقوا عنه فملئوه حكمة وإيماناً .

وإذا كان رسول الله – ﷺ – هو المثل الكامل للإنسان الكامل فإن لنا فيه أسوتنا ، والأسوة فى شق الصدر إنما هى : التوبة .

وتوبتنا إلى الله إذن توبة نصوحٌ إنما هى بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح تخرجنا مباشرة عن جو الخطَّائين ، بل وعن جو الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً ، هؤلاء الذين يقول الله فيهم : (عسى الله أن يتوب عليهم) التوبة / ١٠٢ .

إن الله يعبر فى شأنهم بكلمة (عسى) والتوبة النصوح تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا فى جو : (مع الذين أنعم الله عليهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) النساء / ٦٩ .

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصى : حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة الشيطان سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة أو سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطباً الشيطان :

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) الإسراء / ٦٥ .

وبمجرد أن ينزع الإنسان سلطان الشيطان فى صورة من العزم المصمم ، وينطوى تحت لواء الله فى صورة من اليقين المطمئن فإن الله سبحانه وتعالى يتولاه ويتكفل به .

بل إن رعاية الله سبحانه وتعالى : تبدأ مع الإنسان منذ أن يبدأ فى الاتجاه إليه سبحانه وتعالى مباشرة وبدء الإنسان فى الاتجاه إلى الله إنما يكون بالاستغفار ، فإذا بدأ الإنسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له يقول الله تعالى :

(استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) [١] .

وكلما ازداد الإنسان اتجاهاً إلى الله ، وإقبالا عليه ، وتقرباً منه ، وحباً فيه – ازدادت رعاية الله له :

من تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه

---

(١) سورة نوح : ١٠ – ١٢ .

باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة [١] .

إن حياة النفوس والعمل الصالح أهم عنصر لسعادة الإنسان فى حياته الدنيا وسعادته فى الحياة الآخرة . والله سبحانه وتعالى يبين ذلك فى أكثر من آية فى القرآن الكريم :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل / ٩٧.

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .) الأعراف / ٩٦ .

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق / ٢ – ٣

التقوى والعمل الصالح نتيجتها : السعادة وعناية الله ورعايته واللبنة الأولى فى أساس كل ذلك إنما هى : التوبة أو هى شق الصدر ، واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه ، إنه سبحانه وتعالى – فيما رواه الإمام مسلم – « يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ويقول سبحانه :

(قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً : إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) الزمر / ٥٣ – ٥٤ .

وتوبة العوام إنما هى من الذنوب والآثام ، أما الخواص فإنهم لا يتوبون من الآثام والمعاصى ، فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه . ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه مصبحين ويستغفرونه سبحانه ، ويتوبون إليه ممسين ، بل يستغفرونه ويتوبون إليه تعالى فى كل وقت وحين خضوعاً له وخشية منه ، وتقرباً إليه ، وخوفاً من الكبر الخفى ، أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التى قد لا يشعر بها الإنسان .

---

(١) حديث قدسى .

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، فى ترقيه الدائم ، وفى أنواره التى تزداد كل لحظة ضياء – يستغفر الله ويتوب إليه استغفار عبادة ، وتوبة إنابة وقربى . يقول صلوات الله عليه – فيما رواه البخارى :

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . ويقول صلوات الله عليه – فيما رواه الإمام مسلم :

« يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

بيد أن ما نريد أن نؤكده لطلاب المعرفة الصحيحة – عن عالم الغيب – ونؤكده لطلاب الإيمان المطمئن – هو أن وسيلة ذلك – إنما هى التوبة النصوح ، إنها تستخرج حظ الشيطان ، ثم تأتى بالسكينة .

والتوبة النصوح سبب مباشر – بتوفيق الله – لملء القلب إيماناً ، بعد أن امتلأ رأفة ورحمة ، ثم إنها السبيل لتنزل الحكمة – وهى المعرفة اللدنية – إرسالا إرسالا ، فيفيض بها القلب هداية وإرشاداً : (واتقوا الله ويعلمكم الله) البقرة/٢٨٢ .

وإن من التزم العبودية –واللبنة الأولى فيها إنما هى التوبة – فإن الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علماً .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله ، صلوات الله عليه ، فى سن مبكرة فكان ، صلوات الله عليه – كما تقول السيدة آمنة :

« والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس خياته كلها..

لقد كانت مكة – حينما كان رسول الله – ﷺ شابا فتياً قوياً تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفى هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يهالكون على كل ذلك ويتهافتون عليه ، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك :

ذكر البخارى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين » .

أما هاتان المرتان : فإن سيدنا علياً رضى الله عنه يتحدث عنهما – على ما يروى ابن كثير – فيقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة : نحن فى رعاء غنم أهلها – فقلت لصاحبى :

« ألا تبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان » !

فقال : بلى .

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا !

قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فقال ماذا فعلت !

فقلت : ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذى رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ، ففعل ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذى سمعته تلك الليلة ، فسألت :

فقيل : نكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شيء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء ، من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته .

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان .

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام فإن القصة التالية توضح الأمر :

عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كانت بوانة صنماً تحضره قريش تعظمه ، وتنسك له النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى

الليل وكان ذلك يوماً فى السنة .

وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله ﷺ ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً ، فقالت له عماته :

ما دهاك ؟ قال :

« إنى أخشى أن يكون بى لمم [١] »

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟

قال :

« إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض يصيح بى وراءك [٢] يا محمد : لا تمسه » قالت .

« فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته ، صلوات الله عليه ، شرحاً مستفيضاً وتوضيحاً كاملا ، وتعبيراً تاما لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« إنه يوجد له قبل الوحى خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع . وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

---

(١) مس من الجنون .

(٢) ارجع وراءك .

« وفى الصحيح أنه حمل الحجارة ، وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزاره فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره .

ودُعى إلى مجتمع وليمة فيها ، عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ، ﷺ وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم ، وزكى لأنه بعيد عن الشرك ، لم يسجد لصنم قط ، صلوات الله عليه وسلامه .

الفصل الثالث

الوحى

ما قبل الوحى

إن كتب السيرة لا تحدثنا عن حياة الرسول صلوات الله عليه قبل بعثته إلا بالنزر القليل – القليل جداً – ويمكن تلخيص ذلك – فى صورة مجملة – كما يلى :

بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالى أربع السنوات عادت به حليمة رضى الله عنها – إلى أمه : آمنة بنت وهب ؛ فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله : بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أم أيمن ، تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهراً .

ثم رجعت به إلى مكة ؛ فلما كانت بالأبواء توفيت ، ودفنت هناك ولم ينس الرسول ﷺ – المكان الذى دفنت فيه أمه ، فلما مر فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : « إن الله قد أذن لى فى زيارة قبر أمى » .

ثم أتاه فأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ ، فقيل له ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت .

ورجعت به أم أيمن ، على البعيرين اللذين كانا معهما .

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه ، وعندما وصل مكة قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ، ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا ، وإذا نام ، وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه ، فيقول عبد المطلب حينما يرى ذلك «دعوا ابنى ، إنه ليؤنس مُلْكاً» .

ورآه مرة عبد المطلب بعيدا عن رعاية أم أيمن فقال لها : « يا بركة ، لا تغفلى عن ابنى ، فإنى وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، وإن أهل الكتاب ، يزعمون : أن ابنى هذا نبى هذه الأمة .

ولما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ . فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه لولده ، وكان لا ينام

إلا فى جنبه . ويخرج فيخرج معه . وصبا به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط . وكان يخصه بالطعام . وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا . وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا . فكان إذا أراد أن يغذيهم . قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى . فيأتى رسول الله ﷺ . فيأكل معهم . فكان يفضل من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا . فيقول أبو طالب : « إنك لمبارك » .

واستمر أبو طالب فى رعاية الرسول . صلوات الله عليه . لم يسلمه قط . ولم يخذله إلى أن توفى للنصف من شوال فى السنة العاشرة ، من حين نبىء رسول الله ﷺ ، وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى . بصدد أبى طالب : أن العباس قال .

يا رسول الله . أترجو لأبى طالب ؟ فقال . صلوات الله عليه :

« كل الخير أرجو من ربى » .

وفى هذه الفترة التى قبل البعثة - كان يتحاكم إلى الرسول ﷺ :

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم إلى رسول الله . ﷺ فى الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص فى الإسلام » .

ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك - قضاؤه ﷺ فى الخلاف الذى كان بين قريش . بشأن وضع الحجر الأسود فإنه حينما انتهوا فى بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ؛ واختلفوا حتى خافوا القتال . ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة ، فيكون هو الذى يقضى بينهم . وقالوا . رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله ، ﷺ أول من دخل من باب بنى شيبة . فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين . قد رضينا بما قضى بيننا . ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه على الأرض ، ثم وضع الركن فيه . ثم قال . ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل . فكان فى ربع بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة ابن المغيرة ، وكان فى الربع الرابع قيس بن عدى ؛ ثم قال رسول الله ﷺ :

ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده فى موضعه ذلك .

وفى سن الخامسة والعشرين تم زواجه صلوات الله عليه ، وهنا نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منية تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالا . وكل قومها كان حريصا على الزواج منها لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال فأرسلتنى دسيساً إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى أن أتزوج به قلت : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال . « فمن هى ! » قلت : خديجة ، قال : « وكيف لى بذلك ؟ » قالت : قلت : علىَّ قال : « فأنا أفعل » . فذهبت ، فأخبرتها ، فأرسلت إليه : أن أئت ساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمها فحضر ، وتزوجها رسول الله ﷺ ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة ، ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة .

وفى ظل الحياة الزوجية عاش صلوات الله عليه عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ما كان يشغل به نفسه من العبادة والتقوى وهكذا نشأ ﷺ طاهر النفس ، كريم الخلق ، مجانباً للمذمومات ، مجانباً للرجس .

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة . فكانت شرحاً وتفسيراً لما سبق أن تحدثنا عنه من شق صدره الشريف ، واستخراج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه طور الشباب النضج الكامل والرجولة الرشيدة .

لقد كان صادقاً فى حديثه ، عطوفاً على من حوله ، معينا للضعفاء ، يكتسب ثقة كل من يخالطه .

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة ، رضوان الله عليها .

ولكنها رضى الله عنها – أحبته لشىء آخر هو السمو الروحى ، وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفاشية ، والاتجاه إلى الخالد من معالى الأمور .

إن عناية الله رافقته ولاحظته ووجهته ، فكان خيِّراً زكيًّا ، وكان أمةً وحده وسط هذا الضلال الدينى والأخلاق الذى كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم .

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك .

ومن أجل ذلك سماه قومه : « الأمين » .

لقد كان أمينا على نفسه : فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس . وكان أميناً على الناس : فلم ينتهك عرضاً ، ولم يوقع بعض الناس فى بعض بالنميمة ، ولم يغتب .

وكان أميناً على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ، ولا مغالاة .

وكا أمينا على الأسرار . فلم يفشها ، ولم يذعها .

إنه . « الأمين » . . أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود ، ووضعه فى الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم — كما قدمنا — ، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة ، حينما رأوا محمداً ، ﷺ ، وصاحوا : إنه : « الأمين » رضينا ، إنه محمد !

الوحى : **ولقد حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه** ، أى « يتعبد » الليالى ذوات العد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها .

كان صلوات الله عليه يغادر مكة منغمسة فى الضلال ، ليعتكف فى غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » !

ولكن أما آن لهذا الضلال الذى يخيم على مكة أن ينقشع ؟

أما آن لهذه الظلمة أن تنجلى ؟

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم ؟

أليس هناك أمل فى قبس من نور ، أو أثارة من علم ، أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى والرشاد ؟

ويلجأ رسول الله ﷺ إلى الله يستغيث به . ويستعيذه ويرجوه ، ويلح فى

الرجاء ، ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وتمضى الأيام وهو فى كفاح المستميت ، وجهاد المستبسل ، يتجه إلى الله فى الصباح ، ويتجه إليه فى الظهر ، ويتجه إليه فى الآصال ، ويتجه إليه فى مغيب الشمس ، ويتجه إليه حينما تلمع الكواكب .

إنه مهاجر إلى الله فى كل لحظة ، وفى كل نفس من أنفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب ، وفى كل همسة من همسات الضمير .

إن حياته كلها لله ، ومع ذلك فإن الأيام تمر والسنين تمضى ، ولا يزال الظلام مخيماً فوق أرجاء مكة ، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله ، شارة الضلال وعلم الانحراف !

ويضاعف الرسُول ﷺ خضوعه وتذلله ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاور الأمل الخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء إلى الله ، حتى أصبح صلوات الله عليه وسلامه فى النهاية وكأنه ضفاء من الصفاء ، ونور من النور . . فلما استوت على الجودى . . ولما كاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . . وفى ليلة من الليالى بينما كان الرسول ﷺ معتكفاً فى غار حراء كعادته كل عام ، وفى شهر رمضان المبارك . . تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذى يفصل بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الإلهى ، والاجتباء الربانى من جانب آخر ، أو — بتعبير آخر — ذلك الحاجز الذى يفصل بين الولاية والنبوة .

حديث بدء الوحى

لقد جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال :

(اقرأ) .

قال : (ما أنا بقارئ) .

قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال :

(اقرأ)

قلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، قال :

(اقرأ)

فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى ، فقال :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم) العلق / ١ - ٣ .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى فزملوه ؛ حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

« لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة . .

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . . »

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، لقد كان ورقة عربيا أصيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الأغانى - : « أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية ، إذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة ، فتعلم العبرانية .

يقول الإمام البخارى عنه :

« وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » .

وهو القائل هذه الأبيات الشائعة فى الأوساط المؤمنة .

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان ، إذ دان الشعوب له ... والجن والإنس تجرى بينها البرد[1]

(١) البرد : جمع بريد . وهو الرسول .

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله عليه فيما بعد ، فقال :

« قد رأيته فى المنام : كأن عليه ثياباً بيضاً ، فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناضج ، والمعرفة الواسعة ، والإخلاص المخلص ، وقد كان فى فترة بدء الوحى . هذه . « شيخا كبيراً قد عمى » : أى أنه مر بالتجارب الكثيرة فى الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو إلا حسن الخاتمة ، والعمل ما استطاع – فى سبيل الله .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ، صلوات الله عليه إليه وقالت له :

« يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك » .

فلما أخبره رسول الله ، ﷺ ، خبر ما رأى قال ورقة دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :

« هذا هو الناموس الذى نزّل الله على موسى » .

قال ذلك فى يقين جازم وفى إيمان مؤمن .

أما الأسباب التى دعت ورقة إلى هذا القول فإن منها لا شك : معرفته بحياة الرسول صلوات الله عليه لقد كانت حياة طاهرة عفة ، كان صلوات الله عليه عازفا عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ؛ وكان بعيدا عن أن يكون عبداً للدنيا .

ولقد سمع ورقة حديثاً يعكس صورة صحيحة مخلصة للصدق الصادق ، وسمع هذا التعبير البرىء عن عنصر المفاجأة فى الموضوع . إن الحديث لا يتسم بمنطق مروى ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة ، أيا كانت ، للتلبيس والزيف إنها البراءة المطلقة .

لقد فاجأه الملك على غير انتظار وعلى غير توقع ، وفاجأه فى خلوة يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضاه وفاجأه بأمر لم يكن له على بال :

« اقرأ »

« ما أنا بقارئ »

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم

أرسله ، وقال له ، من جديد : « اقرأ » وتكرر ذلك . . .

ورجع رسول الله ﷺ « يرجف فؤاده » .

فلقد غمره الروع ، وما إن وصل إلى المنزل حتى صاح : « زملونى زملونى » .

فلما ذهب عنه الروع قص على السيدة خديجة رضى الله عنها -- ما رأى ثم قال : « لقد خشيت على نفسى » .

إن كل ذلك برهان واضح على الصدق ، وعلى الإخلاص ، فإذا ما أضيف ذلك إلى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ﷺ فإن ثمرة ذلك : التصديق والإيمان ، بيد أن النور الذى غمر ورقة ، إنما كان إشعاع قوله تعالى :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق . .)

لم يملك أن آمن بأن ، هذا الذى يتلى — إنما هو : وحى من السماء ، إن : (اقرأ باسم ربك) . تنص على أن القراءة لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وإنما هى : باسم الله ، وإذا كانت باسم الله فإنها تفيد الشخص باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنا » وتفيد المجتمع الإسلامى العام ، بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

وإذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله مصدر الخير والنور كانت خيراً ، وكانت نوراً فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وهكذا وضعنا الإسلام منذ : « اقرأ باسم ربك » : أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ؛ وفى خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق ، فما دامت الحياة كلها لله فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وإرادة غير الله بالأعمال .

وحينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى . . . لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول لشخص تجرد إلى الله ، ويدعوك أن تتجرد إليه سبحانه ، شخص لم يطلب

مالا ، ولا جاهاً ، ولا زعامة ، ولا ملكاً ، إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم فى كيانها كله على أساس من تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له : أيمكن أن تقول : إنك كذاب ، فما هو الصدق إذن ؟

أيمكن أن تقول له : إنك منافق ، فأين هو الإخلاص ؟

إن هذه الكلمة الأولى قادت ورقة فور سماعها إلى الإيمان .

أسطورة التعارض بين الإسلام والعلم :

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم – إنما نشأت فى أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التى حثت الإنسانية على التعليم ، والتى ولد المنهج العلمى الذى يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربوعها ، والتى أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا نزال نكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة ، وما من شك فى أن الحضارة الإسلامية هى التى قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية فى كثير من المجالات المختلفة .

إن المنهج العلمى الحديث فى أوربا – يرجع إلى : (روجر بيكون) فهو الذى أذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ : (بريفولت) فى كتابه : « بناء الإنسانية » فيقول عن روجر بيكون : إنه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى مدرسة : أكسفورد على خلفاء العرب فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده – الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحق والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر « بيكون » قد انتشر انتشارا واسعا ،

وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا [١].

ويقول : (بريفولت) أيضاً :

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية [٢] ا هـ .

وإذا كان الإسلام ، هو الذى أنشأ هذا المنهج وهذا العلم فمن الطبيعى ألا يعارضه .

على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هى مسألة وهمية ، إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر :

وذلك أن العلم دائرته المادة والمحس ، أما الدين فدائرته : (ما وراء الطبيعة) ، والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان فى الموضوع ، فكيف يتعارضان ؟

إن ملاحدة العصر الحاضر يتوهمون مشاكل لا أساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضفى الإلف عليها ، وهى وهمية – صورة من ظلال الحقائق ، فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين مع أنه لا اتحاد بين موضوعيهما .

العلم فى الإسلام أوسع دائرة :

وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى فإن الإسلام لا يقف عند ذلك ! وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعمل والمعرفة : هو القلب أو الروح والبصيرة .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، تأليف محمد إقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود .

(٢) المصدر السابق .

إن الإسلام يوجه الإنسان إلى المعرفة الإشراقية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية ؛ ويجمع الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصيرى فى قوله :

(إن السمع ، والبصر ، والفؤاد : كل أولئك – كان عنه مسئولا) [١] .

فالسمع ، والبصر هما أساس العلم المادى : علم التجربة ، والملاحظة ؛ أما القلب فإنه أساس العلم الإلهامى .

إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجه أيضا إلى الاستشراف للهداية والنور القلبى عن طريق الخلق الكريم والتقوى والإخلاص وحب الإنسانية والمعاونة فى الخير .

وإذا كان الإسلام أوسع نظرة فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل فإنه يخالفها اختلافاً جذرياً حاسماً فى مسألة الإرادات والنوايا ، وفى أمر الأسباب والبواعث ، وفى اتجاه الغايات والأهداف .

إن الحضارة الحديثة تقول : العلم لا صلة له بالأخلاق ، أو تقول :

العلم لا أخلاقى والعلم فى نظرها – لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الإسلام يجعل أسس العلم متسمة بالخير ، ويجعل غايته منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قربى إلى الله ، ويجعل منه عبادة لله ، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم ، إن العلم فى الجو الإسلامى قراءة باسم الله .

ومن هنا كانت حضارة الإسلام حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء / ١٠٧

تلك حقيقة فى الدين الإسلامى ، سواء نظرنا إلى أساسه أو نظرنا إلى غايته .

أما الرسول ، صلوات الله عليه فإنه :

(رحمة مهداة) .

---

(١) الإسراء آية : ٣٦ .

الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة :

مكثت الدعوة الإسلامية سرية ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله عليه بالجهر بها . فصعد على الصفا فقال : يا معشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا ؛ فقالوا مالك يا محمد ؟

قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم . وما جربنا عليك كذبا قط .

قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يابنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة . . — حتى عدد الأفخاذ من قريش — إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة . ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : « لا إله إلا الله » .

وإذا كان رسول الله ، صلوات الله عليه قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم فإنه كان مطمئنا واثقاً من أن حياته من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحاً .

لقد كانت حياته البراءة الكاملة ، والطهر التام وهذا ما دعاه إلى أن يتحدى فى صراحة ، وأن يعلن فى وضوح أن حياته تثبت صدق ما يقول .

ولو تمثلت الأمانة — الصدق والإخلاص — فى كل من يحيطون به لما كان فى حاجة إلى رفع علمه هذا ؛ فقد كان يكفى الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين : أى لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره . آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته ، ولقد أقر بهذه الصفة — صفة الأمانة — أبو سفيان فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول : سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسأل هرقل أبا سفيان أيضا هل قد أثر عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى ؛ فقال له هرقل : سألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

أما إثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى ، وهى القرآن ، وتحدى العرب به ، لقد تحداهم به فى عنف ، وتحداهم متدرجا بهم ؛ إذ طلب إليهم أولا : أن يأتوا بمثله فقال الله ، تعالى ، (قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[١] .

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

(أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٢])

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[٣] .

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من لدن الله .

أما عن حياته صلوات الله عليه فإن القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة : لقد تحدث عنها فى صراحة لا لبس فيها ، وتحدث عنها فى إشارات ذات مغزى ، وتركنا فضلا عن ذلك نستنتج من الأخبار الكثيرة التى قصها عنه — جوانب لا تحصى من السمو الأخلاقى الكريم :

١ — لقد تجرد صلوات الله عليه من كل مطمح دنيوى :

(قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد)[٤] .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٢) سورة هود آية : ١٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣ — ٢٤ .
(٤) سورة سبأ آية : ٤٧ .

٢ – ولقد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاما ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة : (قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) يونس / ١٦ .

٣ – ويطلب إليهم القرآن الكريم : أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا ، الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم :

« قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّةٍ ، إن هو إلا نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد [1] »

ويشرح الزمخشرى هذه الآية شرحاً لطيفاً فيقول ما ملخصه :

إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى . أن تقوموا لوجه الله خالصاً ، اثنين اثنين ، أو واحداً واحدا (ثم تتفكروا) فى أمر محمد ﷺ ، وما جاء به .

أما الاثنان فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين ، لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح ، على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده : من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلا ، وأصلهم رأياً ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير .

وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

٤ – ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته ، ويصف دعوته أيضا فيقول .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذن لارتاب

---

(١) سورة سبأ آية : ٤٦ .

المبطلون ، بل هو : آيات بينات فى صدور الذين أوتو العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون)[١] .

وإذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين فإننا نجد أن الآية الأولى تريد أن تقول : إنه حتى لو فرضنا أن محمداً صلوات الله عليه كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتابا ، أو كان يخطه بيمينه لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب : ذلك أن معانى الكتاب ومفاهيم الدعوة التى أتى بها والقواعد والمبادئ التى يبشر بها – كل ذلك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينفيها ، ولا يجحدها إلا الظالمون ، والظالمون فى كل آونة يجحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

٥ – ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول ، صلوات الله عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم /٤ .

إن الدعوة الإسلامية آيات بينات فى منطق الحق ، وفى منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا (أكثم بن صيفى) أحد حكماء العرب ينتهج بفطرته السليمة هذا النهج من الاستدلال على صدق الرسول ﷺ بدعوته :

يذكر (الألوسى) أنه لما ظهر النبى ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشاً » ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم فيما قال :

« إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول صلوات الله عليه هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه حينما سأله النجاشى

---

(١) العنكبوت آيتا : ٤٨ – ٤٩ .

عن أمر دينه : وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم إلى الحبشة مهاجرين إليها بسبب ما نالهم من تعذيب أليم ، وأرسل القرشيون وفداً إلى النجاشى فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص – لرد المهاجرين إلى مكة ، ليعذبوهم من جديد ولما التقى الوفد والنجاشى قال له عمرو بن العاص :

« إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ؛ لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم » .

فلما سمع النجاشى كلامهم رأى أن من الحكمة ألا يسلم إليهم المهاجرين ، دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

« أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . .

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته وعفافه ؛ فدعانا إلى الله ؛ لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان . .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من

عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا – خرجنا إلى بلادك . .

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم بكى النجاشى ، ثم قال :

إن هذا ، والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت إلى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، فقال لهما :

(انطلقا : فلا ، والله لأسلمهم إليكما) .

لقد علم النجاشى فور سماعه المبادئ الإسلامية « أن هذه المبادئ حق ، وأنها آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله عليه ، إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام » .

وبعد فإن سيرة الرسول صلوات الله عليه والمبادئ الإسلامية – من أهم الرسائل التى ينبغى أن يتجه إليها المبشرون بالدين الإسلامى لنشر الإسلام .

على أن هذا النهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق ، وجعل النظر فى الدعوة إحدى الوسائل التى تسلم – مع غيرها من الملابسات – إلى اليقين بصدق الداعى – هذا النهج الذى اتخذه هرقل والنجاشى – هو النهج الذى أقره الإمام الغزالى ، فإنك إذا « أكثرت النظر فى القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ، ﷺ على أعلى درجات النبوة » .

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات ، وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله ﷺ :

« من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

وكيف صدق فى قوله ﷺ ؟

« من أعان ظالما سلطه الله عليه » .

وكيف صدق فى قوله ﷺ ؟

« من أصبح وهمومه هم واحد – هو التقوى – كفاه الله هموم الدنيا والآخرة » .

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف – حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه » بأنه صلوات الله عليه على أعلى درجات النبوة .

« إن النظر إلى الدعوة الإسلامية فى نظر الإمام الغزالى هو أحد الوسائل التى تثبت صدق الرسول ﷺ .

وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال العالم الاجتماعى الكبير : ابن خلدون وهو يستوعب – فى نظرة عامة – الكثير من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات ، وننقل هنا ما كتبه خاصاً بموضوع الاستدلال بالدعوة – حينما تكون الدعوة خيراً محضاً : كالدعوة الإسلامية – على صدق الرسول فيما يدعو إليه ، يقول :

ومن علامتهم أيضاً :

دعاؤهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة ، والصدق ، والعفاف ؛ وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلته ، وفى الصحيح :

أن هرقل حين جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام – أحضر من وجد فى بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان : يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف . . . إلى آخر ما سأل ، فأجابه فقال :

« إن يكن ما تقوله حقا فهو نبى ، وسيملك ما تحت قدمى هاتين » .

والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء إلى الدين ، والعبادة دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة . .

وشىء آخر له مجاله الكبير فى إثبات الرسالة : ذكرته السيدة عائشة ، رضى الله عنها فى حديث : « بدء الوحى » وهو : أن الله ، سبحانه ، حبب إلى رسوله ﷺ الخلاء ، فكان قبيل الوحى يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها الصاخبة التى كان يرى فيها من الضلال الشىء الكثير . .

يتركها ؛ ليخلو بغار حراء فريداً يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبداً ، خاشعاً طالباً

رضاه ، آملا فى هدايته . كان يتحنث فى هذا الغار : أى يتعبد فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود ليعود من جديد إلى النسك ، وإلى العبادة .

لم يكن إذن يطلب مالا أو ثراء أو لذة مادية أو جاهاً أو مجداً عند الناس ، إنه يطلب الهداية ويبحث عنها .

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحاً بيناً فى قوله وسلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

أما النبأ الأول فهو أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً فى قومه – قال يوماً ، وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ﷺ ، جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك : حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ، ﷺ ، يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

« يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً . . تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ، ﷺ ، « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا ؛ حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب . وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه » .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد .

قال : نعم

قال : فاسمع منى .

قال : افعل

قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيًّا لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . . .) فصلت / ١ – ٥

ثم مضى رسول الله ، ﷺ ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها . وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه . فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » قال : « ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : « سحرك والله ، يا أبا الوليد بلسانه » .

قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر ابن الحارث – أخو بنى عبد الدار – وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب ابن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج

السهميان ، وأمية بن خلف – اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا إلى محمد فكلموه : وخاصموه ، حتى تعذروا فيه » .

« فبعثوا إليه ، أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم . .

فجاءهم رسول الله ، ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه » وكان عليهم حريصاً : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له :

« يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا – فربما كان ذلك – بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ! » فقال لهم رسول الله ، ﷺ :

« ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء ، وعن الدنيا كلها – تؤيده حياته ، صلوات الله عليه ، من أولها إلى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييدا حاسما :

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما

كانوا يعملون [١] » .

(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً) [٢] » .

(اعلموا أنما الحياة الدنيا : لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد : كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) [٣] » .

وعن جبير بن نفير رضى الله عنه قال : « دخلت على عائشة ، رضى الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : القرآن » .

وحقيقة الأمر : أن رسول الله ﷺ كان فى كل ما يأتيه وفى كل ما يدعه قرآنا مطبقاً ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) . القلم /٤ .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : « أتى إليه صلوات الله عليه سبعون ألف درهم ، فوضعها – كما يروى هارون بن رباب – على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها » .

« وبينما هو عائد من حنين تكاثرت الأعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه ، فوقف رسول الله ﷺ وقال : اعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه العضاة : – شجر عظيم له شوك – نعما لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلا ، ولا كذاباً ، ولا جباناً » .

ويقول ، صلوات الله عليه ، لأصحابه .

« مالى وللدنيا ؟ » .

ويقول ﷺ :

« عرضت على الدنيا فأبيتها » .

---

(١) سورة هود آيتا : ١٥ – ١٦ .

(٢) سورة الإسراء آية : ١٨ .

(٣) سورة الحديد آية : ٢٠

« ولقد كان رسول الله ﷺ كما يروى عن أنس رضى الله عنه : أحب إنسان إلى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له لما يعرفون من كراهيته له : « أى القيام له » ويقول ﷺ لأصحابه :

« إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » ويقول ﷺ لأصحابه وهم جالسون حوله :

« إن مما أخاف عليكم من بعدى – ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »

إن الرسول صلوات الله عليه ما كان ليتطلع إلى الدنيا فى مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى :

(زين للناس حب الشهوات : من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب [1])

عزوفه ﷺ عن الدنيا إذن : قضية هى من البداهة : بحيث تفجأ فى النظرة الأولى كل دارس لسيرته ﷺ .

وحينما رفعه الله إليه لم يترك الضياع والعمارات والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ؛ وإنما ترك وراءه مبادئ الحق التى أوحاها الله إليه ، والتى مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله فى سبيل إقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتر فى سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالا يؤمنون بهذه المبادئ ، ويثقون بأنهم مكلفون – باعتبارهم من المسلمين – بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيراً يتضوع رحمة ويشع نوراً ، مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة .

إنه ﷺ – هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآنى ، فكان ﷺ عازفاً عن الدنيا ما فى ذلك من شك ، وكان عازفا عن الدنيا لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتى وفيما يدع مرضياً لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقا حتماً .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٤ .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا ، لا يعنى إلا عدم تعلق القلب بها ، ولكن السيطرة عليها وامتلاكها وتسخيرها فى سبيل مرضاة الله : من واجبات كل مسلم ، والمسلم مكافح دائما فى سبيل الله ، ومن أجل مرضاته ، وقد امتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك فى الخير وإسعاد الإنسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الإسلام والعلم ، وعن الإسلام وتسخير المادة ، وقلنا : إن ذلك عبادة .

الفصل الرابع

الإسراء والمعراج

وترقى به إلى قاب قوسيـ ـن وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربه النعماء

يقول الله تعالى :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ؛ لنريه من آياتنا : إنه هو السميع البصير [1]) .

ويقول تعالى :

(والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين ، أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى [2]) .

هذه هى الآيات القرآنية عن الإسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية فإنها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابياً يكمل بعضها بعضا .

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فإنه معروف عادة للمسلمين ؛ وإنما الذى يعنينا أن نذكر على الخصوص الجانب الأخلاقى فيه ، وجانب المغزى منه .

ولقد قدم ابن إسحاق – على حسب ما يروى ابن هشام – لحديث الإسراء بكلمة جميلة يقول فيها :

---

(١) سورة الإسراء آية : ١ .

(٢) (سورة النجم الآيات : ١ – ١٨ .

« وكان فى مسراه وما ذكر منه : بلاء وتمخيص ، وأمر من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء ؛ ليريه من آياته الكبرى ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

ومجمل الأمر : أن رسول الله ﷺ — بينما كان نائما أتاه جبريل ، فأيقظه ، وخرج معه ، فإذا أمامهما دابة بيضاء هى البراق ، وركبها رسول الله ﷺ ، وسارت الدابة وجبريل . معه — على حد تعبيره — ﷺ : « لا يفوتنى ولا أفوته » حتى انتهى إلى بيت المقدس .

فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله ﷺ ، وصلى بهم ، ثم أتى بإناءين : بأحدهما خمر ، وبالآخر لبن ، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن ، وشرب منه ، وترك إناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر » .

وتروى كتب السيرة : أن رسول الله ، صلوات الله عليه : أتاه ليلة الإسراء آتٍ ففرج صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغه فى صدره الشريف ، ثم أطبقه .

ولما انتهى صلوات الله عليه من بيت المقدس عرج به إلى السماء ، وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعها إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ؛ وهناك حيا الرسول صلوات الله عليه ربه :

(التحيات لله ، والصلوات والطيبات)

وحياه الله سبحانه وتعالى :

(السلام عليك : أيها النبى ورحمة الله وبركاته) .

وقال الرسول ، صلوات الله عليه :

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) .

وفى هذه اللحظات الخالدة التى لا يتأتى أن توصف فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة على الأمة الإسلامية .

عن ابن عباس رضى الله عنهما – فيما رواه الإمام أحمد ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة فظعت أمرى ، وعرفت : أن الناس مكذبىّ » .

قال : فمر عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له أبو جهل كالمستهزئ :

هل كان من شىء !

فقال رسول الله ﷺ : نعم .

قال : ما هو ؟

قال : إنه أسرى بى الليلة .

قال : إلى أين !

قال : إلى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعم .

قال : فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث ، إذا دعا قومه إليه !

قال : أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى !

فقال رسول الله ، ﷺ : نعم .

فانطلق أبو جهل إلى قريش ، فقال :

هيا يا معشر بنى كعب بن لؤى .

قال : فانفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال رسول الله ﷺ : إنى أسرى بى الليلة .

قالوا : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس .

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعم .

فإذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب فيما زعم .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال رسول الله ، ﷺ : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت » .

قال : فجيء بالمسجد ، وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعته وأنا أنظر إليه .

قال : فقال القوم : « أما النعت فوالله لقد أصاب » .

وعن الحسن : أنه فى يوم الحديث عن الإسراء ارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له :

هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟

يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع إلى مكة !

فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه .

فقالوا : لا ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟

فوالله إنه ليخبرنى : أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم .

قال : يا نبى الله ، فصفه لى فإنى قد جئته !

قال الحسن : فقال رسول الله ، ﷺ : فرفع لى حتى نظرت إليه ، فجعل

رسول الله ﷺ يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ﷺ ، وكلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال ، رسول الله ، ﷺ لأبى بكر :

وأنت يا أبا بكر : « الصديق » . فيومئذ سماه : « الصديق » .

هذا هو الهيكل الذى ترويه الكتب لهذا النبأ الجليل ، يسمعه قوم فلا يصل إلا إلى الجوانب الظاهرية منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى : أكان ذلك فى اليقظة أم كان ذلك فى النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ، أم كان بالروح فقط ؟ وهل كان ليلا أو كان نهاراً ؟

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور حينما يخف وزن الإيمان فى النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل إلى أعماق قلوبهم ، فيتجهون فى صورة طبيعية إلى مغزاه العميق ، وإلى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الكرام . . من هذه التوجيهات .

١ – لقد كان رسول الله صلوات الله عليه خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة ؛ لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ؛ لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو عن طريق الإرشاد الإلهى ، وكان الكتاب الذى أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو القرآن خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمناً عليها .

ولأن الرسول ، صلوات الله عليه تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن أكمل رسول ﷺ

ومن هنا كانت إمامته صلوات الله عليه بالرسل والأنبياء فى بيت المقدس ، ولأنه صلوات الله عليه أكمل رسول – كان من أجل ذلك أقرب المقربين إلى الله سبحانه وتعالى لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى مالم يصل إليه بشر ، بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله عليه إلى « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ

المعراج من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحداً بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى ، فإنه أيضاً – بل وبطريق أولى – معنى روحى : أى أن الرسول صلوات الله عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجة درجات تجاوزت – فى روحانيتها – آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة .

وهكذا حتى تجاوزت روحياً إبراهيم عليه السلام فى سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسل .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه !

ولكن بعض الناس نزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الإلهى . . ينزل بنا منحدراً ، فيجادل فى الإسراء والمعراج ، أكان رؤية أم كان يقظة . . . !

أستغفر الله ، وأتوب إليه !

إن ذلك الجدل . إن دل على شىء – فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل .

وإذا كانت التوجيهات السابقة إنما كانت لتدلنا على مقام رسول الله صلوات الله عليه ، فنزداد بذلك تقديراً وحباً واتباعاً – فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ الإسراء والمعراج – هذه الرمزيات الأخلاقية التى تربط ربطا محكما بين الدين والأخلاق .

والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطا لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم . وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامى . لا يتجزأ . مصدرها هو مصدره . إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بيّن ؛ فالضمير يربى ويكوّن ، وتربيته ولونه هما شكله ، ونزعته واتجاهه الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة إنما يتحدث باسم فكرته هو منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة إذن كأساس للأخلاق – إنما هى أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية ، أو إلى اللذة أو إلى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوربى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد !

أما وارد الشرق الإسلامى أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهى – فإن مقياس الأخلاق فيه : إنما هو المبادئ الدينية ؛ إنما هو : آيات القرآن ؛ وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين ، وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، و بينتها السنة النبوية الشريفة .

سار رسول الله ﷺ فى مسراه ، فمر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان :

فقال ﷺ لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين . ؛ ثم أتى على قوم تذعن رءوسهم بالصخر ، كلما أذعنت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم !

فقال : ما هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب فى قدر طيب ، ولحم خبيث نيء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث النيء ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل : هذا مثل الرجل من أمتك : تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا ، فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل من أمتك : يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء !

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هولاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها !

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتا فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى ، وإستبرقى ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقرى ، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى ما وعدتنى ! !

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحاً ، ولم يشرك بى شيئاً ، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى ، فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل على كفيته ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا : لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد ، فسمع صوتاً منكرا ، ووجد ريحاً منتنة !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتنى ما وعدتنى ؛ فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى ، وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

ومن الثمار التى جنتها الأمة الإسلامية ، والتى كانت من مقاصد إذاعة النبأ : انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة :

لقد كفر – عند سماع النبأ – من كفر بعد إسلامه ، وارتد من ارتد بعد إيمانه ،

وما كان هؤلاء لو بقوا إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة .

إن هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث القاسية – على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها – إن هؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزغات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله سبحانه وتعالى أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك ، يجب أن يكونوا مهيئين لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول : إن هؤلاء المكيين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية إذاعة نبأ الإسراء والمعراج ؛ لينتكس من ينتكس وليبقى من يبقى عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، إيمان يصدق الرسول صلوات الله عليه فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد إنبائه .

والمثل الأعلى فى كل ذلك إنما هو سيدنا أبو بكر حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : لقد صدق ؛ فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

هذا الإيمان المطلق بالرسول هو الذى جعله صلوات الله عليه – يطلق على أبى بكر رضوان الله عليه « الصديق » . و « الصديقية » مرتبة من مراتب الإيمان لا ينالها إلا من جاهد نفسه جهاداً تخطى به إيمان العامة ، وسما فى إيمانه درجة درجة إلى أن أصبح قائما بالله متجها إليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الإسلامية بأكملها مطلوب منها بالنسبة لأخبار رسول الله صلوات الله عليه – أن تكون على غرار الصديق رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها إلى أخباره وتسلم نفسها إلى أنبائه ، مصدقة تصديقاً كاملا ، تصديقا يحملها على العمل ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تصديقاً إيجابياً يحقق للأمة

الإسلامية المجد الذى ترجوه ، تصديقاً ينبئ عن وجودها هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء الإسلام ، فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول ، صلوات الله عليه : فى أحاديثه ، وفى سنته زاعمين أنهم من المجددين وما هم فى الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

إن هذه الأقلام التى تشكك فى السنة ، وفى الأحاديث النبوية – ليست إلا أقلاما مقلدة للمستشرقين : لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، إنما تحمل طابع التقليد ، وطابع الشك والتردد الذى ينافى الإيمان ، وينافى الصديقية .

أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج ، وأما أعظم المنح الإلهية فى الإسراء والمعراج أعظمها على الإطلاق . أما النعمة العظمى ، والتجلى الإلهى الأكبر فى الإسراء والمعراج – فإنه الصلاة .

ولا يتأتى لنا – عجزاً وقصوراً – أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هى : الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل – ويجب أن يكون كاملا – عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة : لتخلص النفس إلى المنعم ، حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هى : إقامة الصلة بالله وتحقيق ذلك : هو المثل الأعلى والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون ، ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة يقيمها الإنسان . كما أراد الله ورسوله – من أنجع الوسائل فى القرب من الله ، إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن فى سرعة سريعة طبقات البعد عن الله سبحانه ؛ ليصل إليه تعالى ، فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما – هى

التى يجب أن نتنبه إليها ، وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

إن الله سبحانه وتعالى أخذ يتحدث فى سورة النجم عن الآفاق العليا وعن أجواء إلهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانى حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه ، يتحدث عن :

رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء

ثم . . ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى بنا فى سرعة سريعة دون سابق إنذار ليفتح أعيننا على مهازل ومهاو من الشرك يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا ، فقال : سبحانه بعد أن ذكر هذه التجليات الإلهية :

(أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟) النجم /١٩ - ٢٠ .

لقد أرانا سبحانه بهذه الكلمات البشرية المسكينة فى ضلالها الدينى ، وفى انحرافها الذهنى .

إن كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث عن أن الرسول ﷺ ، أسرى به بجسمه وبروحه أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة ، أو مناماً - إنما هو بذلك يتحدث بنفسه مختاراً من التجلى الإلهى ؛ ليهوى بها منتكساً إلى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكساً من جو سدرة المنتهى إلى الجو المادى ، ومن مجالات النور السماوى المتلألئ إلى ظلمة الجدل وزيغ المماراة فى الدين .

فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار مبتعدين عن الجدل مع المارين ، ولندع الله قائلين : (ربنا لا تزغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) آل عمران /٨ .

الفصل الخامس

الهجـــرة

يالجلال الإيمان وثباته وقوته !

إن التاريخ : نادراً ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصة لله ولرسوله ، هجرة إلى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل المهاجر : هل مهجره سيستقبله مرحباً ويؤويه فى ألفة أو أنه سيقابله بالجفوة والعداوة ؟ هجرة لم يمهد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكان . . إن التاريخ لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالإيمان ومن أجل الإيمان .

ولكن التاريخ الإسلامى حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فإنه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الإيمان ، وكثر الحديث عنه – ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم ، فعذبوهم ، وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب ألواناً فى سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور قال لهم رسول الله ، ﷺ ، شفقة عليهم ورحمة : « تفرقوا فى الأرض » .

فقالوا : أين نذهب يارسول الله ؟

فأشار إليهم : إلى الحبشة ؛ فهاجر إليها فى بادئ الأمر طائفة من المسلمين : منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفرداً .

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم إلى مكة معتقداً أن الأمور قد هدأت فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا إلى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديداً .

فأذن لهم رسول الله ، ﷺ بالخروج إلى أرض الحبشة مرة أخرى فكانت هجرتهم الأخرى مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً . ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان ، رضى الله عنه مخاطباً رسول الله ﷺ :

يارسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ولست معنا !

فقال رسول الله ، ﷺ هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون إلى الله وإلىَّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً » .

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يارسول الله » .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً ، وكان عدد النساء ثمانى عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفداً من ساسة العرب الدهاة ، مزوداً بالهدايا إلى النجاشى ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين إلى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جديد ! (وَمَكَرُوا وَمكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِين)[1] .

ولم يفلح الوفد وعاد إلى مكة بخفى حنين .

ولما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتنافى تنافياً تاما والإنسانية : فقد كتبوا كتاباً تعاهدوا فيه على ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم . وكان الكاتب للصحيفة هو : منصور بن عكرمة العبدرى ، وكان من تقدير الله تعالى أن شُلَّت يده !

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد — حصروا بنى هاشم فى شِعب أبى طالب .

وكان ذلك فى أول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ؛ حتى بلغ بهم الجهد مبلغاً خطيراً ، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعاً ومسغبة ، فلا ترق قلوبهم ، ولا يتأثرون واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينما هذه الأمور من الشدة والقسوة تجرى تحت سمع الرسول وبصره كانت قريش ترسل له صلوات الله عليه من يعرض عليه . المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلاً .

وما ترك رسول الله ﷺ الدعوة قط ، كان يدعو ليلاً ، وكان يدعو نهاراً ، وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته . يروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهلياً أسلم يقول :

---

(١) سورة آل عمران آية : ٥٤ .

« رأيت رسول الله ﷺ بصر عينى بسوق ذى المجاز يقول :

« يأيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » . ويدخل فجاجها والناس متقصفون[1] عليه ، فما رأيت أحداً يقول شيئاً ، وهو لا يسكت يقول :

يأيُّها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

أقام رسول الله ، ﷺ ، بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته ، مستخفياً ، ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يوافى المواسم كل عام يتَّبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنَّة وذى المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ؛ حتى إنه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يأيُّها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً فى الجنة » .

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله عن الدعوة إلى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء ؛ حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه ، وكان الإسراء والمعراج فارتد من ارتد ، وثبت من ثبت ، وكان حادث الإسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ثابتة على إيمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد . وطائفة مشركة قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام مهما طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الإسلام فى هذه الفترة – فترة السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة – مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على إيمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هذه الفترة تربية للمؤمنين وصقلاً لهم ، وهى – وإن كان الرسول صلوات الله عليه لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات – كانت مع ذلك تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الإسلام ونشر دعوته .

وإذا كانت المعسكرات قد تحددت : فى مكة ، وإذا كانت الفترة من الإسراء

---

(١) يجتمعون ويزدحمون .

إلى هجرة الرسول صلوات الله عليه – كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب – فإن الإسلام فى هذه الفترة لم يكن قد وقف راكداً ، بل بالعكس قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول فى معسكره المكى كل عناصر الخير بمكة ، ولم يبق فيها – فى الطرف المقابل – إلا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة ، وإنما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة إليها من جديد فى ظروف مهيأة ، وبوسائل غلابة ، لقد هيأ الله الأمر لانتشار الإسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد فى الطبقات :

« أقام رسول الله ، ﷺ بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة وعكاظ ومنى – أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ، ويشتم ، حتى أراد الله إظهار دينه ، ونصر نبيه ، وإنجاز ماوعد ، فساقه إلى هذا الحى من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ووعدوه أن يُلاقوه فى العام القادم .

ولما عادوا إلى المدينة بشروا بالإسلام فى قومهم . فأسلم من أسلم ، وكثر فى المدينة الحديث عن الإسلام .

فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلاً ، فبايعوا الرسول – كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم – : « على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف » .

قال : فإن وفَّيتم فلكم الجنة ، ومن غَشِى من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » .

إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، إنها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها .

وانظر إلى الدقة فى قوله ولا نعصيه فى معروف . إنه لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وإنما قيد ذلك بقوله : « فى معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة

هذه ، فستقر – لا مناص – بأنها وثيقة إلهية .

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاق أخرى ، وبوجوه عليها نور الإسلام ، وبقلوب انغمست فى محيط الرحمة ، وأخذوا يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين .

ثم . . ثم عادوا فى العام التالى ، وهم سبعون أو يزيدون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان . . والتقوا ورسولُ الله ، صلوات الله عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يامعشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته : يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وإنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ، ﷺ .

قال : وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن . ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكر الذى اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال : يارسول الله ، بايعنا فنحن أهل الحلقة[1] ورثناها كابراً عن كابر . .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله ، ﷺ : أخفوا جرسكم[2] ؛ فإن علينا عيوناً وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالّكم .

فتكلم البراء بن معرور . فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال : أبسط يدك

(١) أهل السلاح .

(٢) كلامكم وصوتكم

يارسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ – فيما يقال – البراء ابن معرور .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله ، ﷺ :

إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ؛ فإنما يختار لى جبريل » .

فلما تخيرهم قال للنقباء : « أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل « على قومى » .

قالوا : نعم . . .

فقال رسول الله ﷺ : « انفضوا إلى رحالكم » .

فقال : العباس بن عبادة بن نضلة ، يارسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نؤمر بذلك ، فانفضوا إلى رحالكم » .

ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ – طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوماً : أهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما ضاقوا بالأمر ذرعاً ، شكوا إلى رسول الله ﷺ ، واستأذنوه فى الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخرج إليها .

وأخذ المسلمون يهاجرون سرًّا بادية عليهم آثار تربية الرسول ﷺ : من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق فى سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا فى جميع أحوالهم من جنود الله ، مهاجرين إليه للعمل على إعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول ﷺ ولا فى نظر أصحابه – ركوناً إلى الدعة والهدوء ، أو ميلاً إلى الراحة والسكون ؛ وإنما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله من جبهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهاجرون إلى الله ورسوله : يهاجرون سرًّا : جماعات أو فرادى ؛

حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعلى ، رضى الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج .

وعندئذ آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر .

هاهو ذا رسول الله ﷺ على مشارف مكة ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود إليها مبشراً بدين الله عاملاً على أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ودعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله ، إنك لأحب البلاد إلى نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فدخلاه ، ولما علم المشركون بالأمر ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على ألا يفلت المهاجران إلى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول ﷺ ، وما كانوا يبالون قط بقتل رجل أن يقول : ربى الله !

ولقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل ، وعرضها على الوضع التالى :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً ، ثم نعطيه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل جميعاً فيقبلوا الدية فنعطيهم إياها .

(ومكروا ومكَر اللهُ واللهُ خير الماكرين)[1] .

دخل رسول الله ﷺ هو وأبو بكر الغار مختفيين ، وكان سيدنا أبو بكر حزيناً خوفاً على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهى على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يملؤه ثقة وتفاؤلا : (لا تَحزَنْ ؛ إن الله معنا)[2] .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التى تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال : لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه

---

(١) سورة آل عمران آية : ٥٤ .

(٢) سورة التوبة آية : ٤٠ .

لأبصرنا ويبتسم رسول الله صلوات الله عليه ، ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .

ولما انتهى الطلب ، وعاد المشركون من حيث أتوا – خرج رسول الله ﷺ هو ورفيقه ، وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما فى الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججاً بالسلاح على فرس تسابق الريح ؛ ليأسرهما حتى يفوز بالجائزة التى وعد بها المشركون من يأتى بالرسول ﷺ قتيلاً أو أسيراً .

فلما دنا منهما دعا عليه رسول الله ﷺ ، فساخت قوائم فرسه ، فقال : يامحمد ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائى ؛ ففعل ، فأطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ ، فقال : ارجعوا فقد استبرأت لكم ما هاهنا ، وقد عرفتم بصرى بالأثر فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل إلى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنا مِن ثَنِيَّات الوَدَاعْ
وجبَ الشكر علينا ما دعا لله داع
أيُّها المَبْعُوثُ فِينا جئت بالأمر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التى قام بها رسول الله صلوات الله عليه فى المدينة :

١ – بناء المسجد ، المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم .

٢ – المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقاً لمبدأ من مبادئ الدين الإسلامى يتمثل فى قوله تعالى :

(إنما المؤمنون إخوة)[1] .

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألِفَتْه ضبابها والظباء
وسلَوْهُ وحن جذع إليه وقلوه ووَدَّهُ الغرباء

(١) سورة الحجرات آية : ١٠ .

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآ ه ومن شِدَّة الظُّهُور الخَفَاءُ
ونحا المُصْطَفَى المَدِينة واشْتَا قتْ إليه من مكة الأنحاء

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية . ورمز روحى جميل يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته ، بل فى كل نفس من أنفاسه ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز عن الهجرة الروحية ، عن الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان . والهجرة بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى ، ويتجاوز الزمان والمكان – قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة وفى القرآن الكريم .

يقول رسول الله صلوات الله عليه فيما رواه البخارى رضى الله عنه :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه »

هذا المعنى الروحى نتبينه من وضوح سافر فيما يلى :

يقول الله تعالى :

(إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم)[1] .

وفى هذه الآية الكريمة : يصور الله تعالى إخراج الكفار للرسول ، صلوات الله عليه ، من مكة ، وهجرته مستخفياً فى جنح من الليل مفارقاً البلدة التى ولد بها ، والتى بها عشيرته وقومه ، إلى بلد يجد فيها حرية الدعوة إلى الله . .

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى يصوره بأنه انتصار فى

---

(١) سورة التوبة آية : ٤٠ .

الوقت الذى كان فيه الرسول صلوات الله عليه ، مختبئاً فى الغار هو والصديق رضوان الله عنهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون فى كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصاراً مبيناً ؛ لأنها فرار إلى الله ، والفرار إلى الله انتصار ، حتى لو انتهى بالموت أو القتل .

(والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين[١]) .

ونحن مأمورون بالفرار إلى الله ، أى بالهجرة إليه (ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبينٌ)[٢] . وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال : (إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم)[٣] وقال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين)[٤] والفرار إلى الله ، والهجرة إليه ، والذهاب إليه ، من صفات المؤمنين الصادقين : إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه (يوميا) فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هى إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده . متمحضة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول صلوات الله عليه للصديق : (لا تحزن إن الله معنا) التوبة/٤٠ ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين لا شريك له . ومن كان كذلك فإن الله ينزل عليه السكينة : أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها الأعين ؛ فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادئ البال سعيداً ولو ألقى فى النار لأنه لم يشعر بها إلا برداً وسلاماً .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه تعالى :

وأول مرحلة فى سبيل الهجرة إليه سبحانه – إنما هى النية الخالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى : فمن كانت هجرته إلى الله

---

(١) سورة الحج آية : ٥٨ .
(٢) سورة الذاريات آية : ٥٠ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٢٦ .
(٤) سورة الصافات آية : ٩٩ .

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى كانت الأعمال هجرة إليه ، أما إذا لم تتوجه النية إليه فإن الأعمال - ولو كانت خيراً فى ظاهرها ؟ تكون هباء منثوراً ، ومن هنا يتبين المؤمنون حقًّا فساد الأفكار التى يروجها الحائدون عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : إن العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ، أو الخير لإرضاء الضمير ! إن كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضاً خطر على المجتمع ، لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهما إلى الله أسساً وغايات انحرفت بهما الإرادات والنيات إلى الشر والإفساد ، فشقيت بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى إلا عن طريق الدين ، وقد حاولت العقول - مستقلة عن الدين - تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل إلى نتائج ، والمؤمن إذن يهاجر إلى الله بعلمه ، ويهاجر إليه بفنه ، ويهاجر إليه بعمله الخير .

على أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها إنما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمو بالمؤمن صعداً إلى الصلة بالله ، وإلى النعيم فى رضوانه ، وإلى السعادة فى رحابه : فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة إلى الوقوف بين يدى الله - ومناجاته - لحظة من الزمن - فهى هجرة إلى الله .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقرباً إلى الله فهى ذهاب إليه .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس ، وقربى إلى الله ، فهو ذهاب إليه .

أما مناسك الحج فإنها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم « لبيك اللهم لبيك » .

وختاماً فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى - إنما تتمثل فى أروع مظاهرها فى قوله تعالى :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك

أمرت وأنا أول المسلمين)[١] .

يقول صلوات الله عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » جهاد فى كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فإلى هذه الهجرة الكبرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله .

وبالله التوفيق . .

---

(١) سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ – ١٦٣ .

الفصل السادس

الجهـــاد

إن رسول الله ﷺ الذى كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام هو الذى يقول : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو – مات على شعبة من النفاق » .

إن النبى العابد هو النبى المكافح ، وإن نبى الرحمة هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط فى الإسلام إلا فى سبيل الله ، فإذا ما خرج عن سبيل الله لم يكن إسلامياً ، وكل ما فى سبيل الله إنما هو رحمة .

وليس من شأننا أن نتحدث عن الغزوات سرداً وترتيباً وتفصيلاً ، وإنما نذكر منها عبراً ؛ حتى ننتهى إلى فتح مكة .

وأول ملاحظة هى أن الرسول العابد لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحياناً ، ولكنه صلوات الله عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات ، لا يتزحزح عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت فى مكانه فى غزوة أحد التى غُلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا – أن يقضوا عليه ، صلوات الله عليه .

ووقف ثابتاً فى غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم إذ ذاك ، وكيف يمكن أكمل رجل فى الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟

ولقد كان واضحاً فيه صلوات الله عليه ما يقوله سيدنا على ، وهو من هو – بطولة وفروسية : « كنا إذا حمى الوطيس أى الحرب – اتقينا برسول الله ﷺ : أى احتمينا به وفيه ، فيكون أقربنا إلى العدو » .

وكان صلوات الله عليه مع التجائه إلى الله تعالى – يدعوه ويستغيث به ؛ ويستنجزه وعده بالنصر – يحكم الأمر إحكاماً ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره فى جميع أموره : لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيماً محكماً ، ثم اتجه إلى

الله يدعوه ، وكان دائماً متفائلاً ؛ حتى لو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون بإذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد شذوذاً فى القاعدة ، وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا – متأولين – أوامر الرسول ﷺ ، غير أن تفاؤله صلوات الله عليه – لم يفارقه لحظة ، إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة أمرهم صلوات الله عليه بلم شعثهم ، وتضميد جراحهم ، والاستعداد فوراً لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله عليه أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ، يسانده اليهود والغادرون ؛ ليقضوا على الإسلام فى المدينة : ليقضو عليه ديناً ، وليقضوا عليه دولة ، وليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالاً ، وقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ، ومنعاً من وصول العدو إليهم فى هذه اللحظة الحرجة – يروى البراء بن عازب رضى الله عنه القصة التالية ، على حسب ما رواه الإمام أحمد :

« أمرنا رسول الله ، ﷺ بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، فشكونا إلى رسول الله ﷺ ، فجاء ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول ، وقال :

باسم الله ، فضرب ضربة ، فكسر ثلث الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى ، هذا ثم ، قال باسم الله ، وضرب ثانية ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا ، ثم قال : باسم الله ، وضرب ضربة ثالثة فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين ، وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : إن محمدا يعدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة فى الله لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هى :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزاً)[1] .

إن آيات الفتح هذه – نزلت فى أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها . وقد نزلت تشير إلى فتح مكة وتبشر به . ولقد أوحاها الله إلى رسوله ليلاً ، فلما أصبح صلوات الله عليه قال : لقد نزلت على الليلة سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحا مبيناً) .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى ؛ وإنما هى تشير – على الخصوص – إلى الآفاق العليا من الرضوان الإلهى . إنها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ؛ والتى سمت برسول الله ، صلوات الله عليه إلى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

إنها بشرى من الله بفتح مبين ، وغفران شامل ، وإتمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ، ونصر عزيز . وهذه منح إلهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وإنما تفسر أيضاً ومن باب أولى – بالمعانى الروحية فى أسمى صور التجليات الإلهية – اللهم لك الحمد والشكر – ولذلك فإننا حينما نتحدث عن فتح مكة لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ؛ وإنما الذى يحتل ذلك إنما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسانى الممثل فى الرحمة المهداة من الله تعالى إلى الإنسانية : أى فى سيدنا رسول الله صلوات الله عليه .

ومهما يكن من شىء فإن قريشاً نقضت عهد الحديبية الذى كان يفرض الهدنة

---

(١) سورة الفتح الآيات : ١ – ٣ .

بينها وبين رسول الله صلوات الله عليه ، وكانت الفرصة مواتية لأن يركز الله تفكير رسول الله ﷺ ، فى أمر قريش :

أما آن لقريش أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ، ولا تشرك به شيئاً ؟ (إنَّ الشرك لظلم عظيم)[١] .

أما آن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله ، وما نزل من الحق ؟ .

لقد دعا سيدنا إبراهيم – فى رحاب مكة – ربه مبتهلاً ضارعاً قائلاً : (ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم)[٢] .

وها هو ذا رسول الله ، ﷺ قد بعثه الله إليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى السماء ؟

وهذا البيت العتيق الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل قائلين : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)[٣] هذا البيت الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود هذا البيت قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة – فى وقاحة سافرة – الشرك بالله .

لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها إلى الله .

وصمم رسول الله ، ﷺ فى عزم لا يلين على أن يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين : (أعنى مكة) وأن يطهر البيت من جديد للطائفين والعاكفين والركع السجود . وعبثاً حاول أبو سفيان – الذى أرسلته قريش سفيراً بينها وبين الرسول – أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان – برغم دهائه ولباقته – عوناً من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله التى بلغ بها النفور من الشرك أن طوت فراش رسول الله ﷺ ، حتى لا يجلس عليه أبوها – زعيم المشركين وحامى الشرك فى مكة – فلما سألها مستفسراً : أرغبت به عن الفراش أم رغبت

---

(١) سورة لقمان آية : ١٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٢٩ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٢٧ .

بالفراش عنه ؟ قالت هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ! فانصرف مغضباً قائلاً : « والله لقد أصابك من بعدى شر» وأخطأ أبو سفيان ، فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

وعبأ رسول الله . صلوات الله عليه القوى وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا كان بالكديد ، واجتمع الناس إليه – أخذ إناء فشرب منه ثم قال : « أيها الناس ، من قبل الرخصة ، فإن رسول الله ، ﷺ : قبلها . ومن صام فإن رسول الله ﷺ – صام .

حتى إذا بلغ صلوات الله عليه « مر الظهران » – وهو مكان بالقرب من مكة – أمر الجيش بالإفطار ، لأنه فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والإيمان .

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما رآه أبو سفيان وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال ، بعقليته الجاهلية ، للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، فقال العباس ، بعقليته الإسلامية : ويحك ! إنه ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان ، فنعم ، وتوجه رسول الله نحو مكة محذراً من إراقة الدماء . ولما قال سعد بن عبادة ، وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة » . عزله النبى ﷺ ، فقد كان رسول الله صلوات الله عليه يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة .

ودخل رسول الله صلوات الله عليه مكة دون مشقة ، وكان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعاً ، ودخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى إبراهيم عليه السلام مصوراً فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ! ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ .

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن كان حنيفا مسلما . وما كان من المشركين)[1] .

وأمر بطمس الصور كلها ، واتجه إلى الأصنام ، فحطمها مردداً قوله تعالى :

---

(١) سورة آل عمران آية : ٦٧ .

(جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً)[١] .

وإذا كان رسول الله ، ﷺ قد حطم الأصنام المادية فإنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكلّ عمل لا يقصد الإنسان به وجه الله فإنما هو من أعمال الشرك . وفى هذا اليوم تملكت أريحية العفو رسول الله ، صلوات الله عليه :

فإنه حينما اجتمعت قريش إليه نظر إليهم وقال : يامعشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال وهو يبكى : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لإخوته :

(لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين)[٢] .

فكان هذا اليوم حقًّا يوم المرحمة .

وبالله التوفيق .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨١ .

(٢) سورة يوسف آية : ٩٢ .

الفصل السابع

النبى العابد

أَلِفَ النسْكَ والعبادةَ والخلْـ ـوةَ طفْلاً وهكذا النُّجَبَاءُ
وإذا حلَّتِ الهدايةُ قلباً نَشِطَت فى العبادَة الأعضاءُ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هى :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) العلق آية ١ ولقد كانت هذه الآية الكريمة – بوضعها ومفهومها وجوها – شعاراً عامًّا وتوجيهاً شاملاً ، فما كانت تعنى بروحها القراءة فحسب ، وإنما كانت تعنى : أنه – منذ هذه اللحظة – يجب أن يكون كل أمر باسم الله : فعلا كان هذا الأمر أو تركاً .

ولقد تأكد هذا الاتجاه ، وأصبح سافراً فيما بعد ، بل لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله ، ﷺ :

(قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[1] .

على أن المسألة أشمل من ذلك وأعم إذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا .

إن الله سبحانه قد أخبر فى قرآنه الكريم – أنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة يقول سبحانه .

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[2] .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التى يجب أن يعمل الإنسان على تحقيقها إذن إنما هى العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة :

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . وقل

---

(١) سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ – ١٦٣ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا)[١] .

(واسجد واقترب)[٢] .

(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[٣] .

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم)[٤] .

وما من شك فى أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة ، إنه سبحانه الغنى المطلق ، والمانح المطلق ، والمعطى المطلق ، إنه سبحانه الوهاب ، الرزاق المغنى إنه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج .

وما كانت العبادة إلا لأجل تكميل الإنسان : فمن فضل الله على عباده – أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، إنها راجعة إليه فى الدنيا ، وراجعة إليه فى الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[٥] .

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية ، وبرسوله الكريم – أن أول كلمات من الوحى كانت توجيهاً للرسول وللمسلمين بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلاً أو شرباً مثلاً .

واستجاب الرسول صلوات الله عليه لهذا التوجيه السامى الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحى .

إن الرسول صلوات الله عليه حينما فاجأه الوحى ، فعاد يرجف فؤاده إلى منزله الطاهر ، وقال : زملونى زملونى – نزل عليه قوله تعالى :

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ٧٨ – ٨٠ .

(٢) سورة العلق آية : ١٩ .

(٣) سورة الحجر آية : ٩٩ .

(٤) سورة الطور آيتا : ٤٨ ، ٤٩ .

(٥) سورة الطور آيتا : ٤٨ ، ٤٩ .

(يأيُّها المزمل ، قُمِ الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً)[١] .

لم يقل له سبحانه : يأيها المزمل ، لا تخش بأساً ، أو يأيها المزمل ، لا ترع فإن ذلك من عند الله ، وإنما كان الرد على رجفة الفؤاد أمراً بالعبادة .

وكذلك الشأن فى كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب – أمر بالعبادة مثل :

(فاصبر على ما يقولون . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار : لعلك تَرْضى)[٢] .

وهنا علق سبحانه الرضا وطمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد : على التسبيح والذكر والعبادة ، ويشير الله إلى ذلك أيضاً فيقول :

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود)[٣] .

واستجاب الرسول صلوات الله عليه استجابة كاملة للتوجيه الإلهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ؛ إذ إنه كان يعملها باسم الله : لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياتهَ بأكملها ، بل ومماته أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته ، بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه ، فكان ذلك توجيهاً به إلى الله ، فكان عبادة له ، وهذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله صلوات الله عليه – أول المسلمين » :

أولهم منذ أن خلق الله العالم إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، باعتبار أن الدين عند الله – منذ الأزل إلى الأبد – إنما هو الإسلام .

لقد صير الرسول صلوات عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر .

وإذا استحالت إلى عبادة فقد استحالت إلى قوة ، أرأيت حينما تجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ، ومن العلم عبادة ، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى

---

(١) سورة المزمل الآيات : ١ – ٤ .

(٢) سورة طه آية : ١٣٠ .

(٣) سورة ق آيتا : ٣٩ ، ٤٠ .

على المعاش عبادة ، ومن ، ومن . . ؟ هل يضعف المجتمع أو يقوى ؟ » وهل يأمن أهله أو يخافون ؟ وهل يسعدون أو يشقون ؟

مهما يكن من شيء فقد استجاب الرسول صلوات الله عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكراً لها فقال سبحانه :

(إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه)[١] .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التى تصور هذا الجانب من حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته صلوات الله عليه أهداف :

١ – تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ – رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة . من الناحية النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل فى نفاسته العبادة والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك إنما هى « صلّ » .

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى . بل للاضطراب النفسى أيًّا كان .

ومتى وجدت النفس المطمئنة – والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة فإن الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول بإقرار أطباء الأجسام أنفسهم ، ثم إنه – بإقرار أطباء الأجسام أيضاً – لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية .

٣ – وهذه الأسوة بالرسول ، صلوات الله عليه ، التى نرجوها – ستكون أيضاً سببا فى تفريج الضيق المادى :

(ولو أن أهل القُرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . .)[٢] .

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون)[٣] .

---

(١) سورة المزمل آية : ٢٠ .

(٢) سورة الأعراف آية : ٩٦ .

(٣) سورة النحل آية : ٩٧ .

وهذه الأحاديث التى نذكرها ليس فيها حديث ضعيف ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال ، فإنا قد تحرينا تحرياً كاملاً ألاَّ نذكر فيما يلى – إلى آخر الكتاب – حديثاً ضعيفاً .

الصلاة :

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه » .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يارسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟ »

أما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

« صليت مع النبى ﷺ ، ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به ؟

قال : هممت أن أجلس وأدعه » .

ولعل لابن مسعود ، رضى الله عنه عذره فقد كان صلوات الله عليه يقرأ فى الركعة الأولى مثلاً سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، وفى الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك حينما كان يفعله منفرداً فى جوف الليل .

أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف .

وقد ورد فى السُّنَّة الصحيحة : أطال الرسول صلوات الله عليه القراءة فى الركعات التى يصليها فى الليل ، وبسبب هذه الإطالة كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشر ركعة .

« عن عائشة رضى الله عنها : كان النبى ، ﷺ يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » .

وكان الرسول صلوات الله عليه ، يستغرق فى صلاته الليلية ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

« أتيت النبى ﷺ وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل : يعنى يبكى » .

وللصلاة أهمية أكبر يوضحها الرسول صلوات الله عليه بقوله :

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وكان صلوات الله عليه يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله عليه فى الصلاة :

كان عند الإقامة يقول :

« أقامها الله وأدامها » .

« وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة طأطأ رأسه » .

قالت عائشة ، رضى الله عنها : « لم يكن ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر » .

عن سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، كثيراً ، كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى منه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام » .

« وكان ﷺ : يدخل فى الصلاة ، فيريد إطالتها ، فيسمع بكاء الصبى ، فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه » .

وكان ، ﷺ : يقرأ سورة « الجمعة » فى الركعة الأولى و « إذا جاءك المنافقون » فى الثانية .

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب (والطور) .

« وكان صلوات الله عليه » يقرأ فى المغرب : (والمرسلات عُرفا)وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ، ﷺ .

وعن أم هاشم بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت « ق ، والقرآن المجيد » إلا عن لسان رسول الله ، ﷺ ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » .

« وكان صلوات الله عليه يقرأ فى صبح الجمعة : « ألم تنزيل » السجدة ، و « هل أتى على الإنسانِ حين من الدهر » رواه الشيخان من حديث أبى هريرة ، وإنما كان يقرؤهما كاملتين وقراءة بعضهما خلاف السنة .

كان ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة : « سبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الغاشية » .

وكان « يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

« وكان صلوات الله عليه يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » .

« وفى السجود يقول صلوات الله عليه : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

« وعن حذيفة كان يقول ﷺ فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده : سبحان ربى الأعلى » .

« وعن عائشة رضى الله عنها : كان ﷺ ، يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى يتأول القرآن » رواه مسلم ، ومعنى يتأول القرآن يعمل بما به كما فى قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً)[1] فكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع فى الجزالة ، المستوفى ما أمر به فى الآية » .

---

(١) سورة النصر آية : ٣ .

الصيام

أما إذا جئنا إلى رمضان وإلى الصيام على وجه العموم – فالأحاديث التالية توضح بعض الأمر ؛ كما أن أحاديث الصلاة التى رويناها إنما بينت إشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام .

فرض رمضان فى السنة التالية من الهجرة ، فتوفى سيدنا محمد رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات .

عن عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ : إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر » .

وعنها قالت « كان . ﷺ ، يجتهد فى رمضان مالا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخيرة مالا يجتهد فى غيرها » .

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله تعالى » .

« كان النبى ﷺ يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً » .

« إذا دخل العشر الأخيرة طوى فراشه ، واعتزل النساء ، واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحوراً » .

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلوات الله عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا ؛ قالوا : إنك تواصل : قال : لست كهيئتكم إنى أظل أطعم وأسقى » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ لايفطر الأيام البيض فى حضر ولا سفر ، وهى ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبى ﷺ يدعهن : صيام عاشوراء ، والعشر – أى تسع ذى الحجة – والأيام البيض من كل شهر ، وركعتا الفجر » .

«كان صلوات الله عليه يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس».

«كان النبى ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر».

الذكر.

«لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وعن عائشة رض الله عنها، قالت: «كان صلوات الله عليه يذكر الله على كل أحيانه».

«مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكره – مثل الحى والميت».

وأفضل الذكر: قراءة القرآن.

«ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

«إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن – كالبيت الخرب».

«اقرءوا القرآن؛ فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وبينما جبريل عليه السلام قاعداً عند النبى ﷺ سمع نقيضاً من فوقه. فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، ولم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته».

ولأن لا إله إلا الله أساس التوحيد، وتعبير عن التوحيد، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على أنحاء شتى – قال صلوات الله عليه: «أفضل الذكر لا إله إلا الله».

عن أبى موسى، رضى الله عنه قال: «قال لى رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟».

فقلت: بلى، يارسول الله.

قال : لاحول ولا قوة إلا بالله » .

« قال رسول الله ﷺ : لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أسرى بى . فقال : يامحمد ، أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وكان ، صلوات الله عليه يقول بأعلى صوته : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

« من قال لا إله إلا الله وحده ، لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة – كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : « من قال – سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة – حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

« إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأصحابه : لامبيت لكم ولا عشاء ؛ فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله : قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه : قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن أو تملأ مابين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس تغدو : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

« إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » .

« لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر – أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » .

«كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» . . .

الدعاء :

وقال صلوات الله عليه وسلامه : «الدعاء هو العباده» .

أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها :

«أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء ، فقمين أن يستجاب لكم» .

«قيل لرسول الله ، ﷺ : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة» :

«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل» .

«لايزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، مالم يستعجل ؛ قيل : يارسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء» .

«ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ؛ فقال رجل من القوم : إذن نكثر ؛ قال : الله أكثر» .

«كان صلى الله عليه وسلم يحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ماسوى ذلك» .

ومن جوامع دعائه مايلى :

«أتاه رجل فقال : يارسول الله ، كيف أقول حين أسأل ربى ؟ قال : قل : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، وعافنى ، وارزقنى ؛ فإن هؤلاء : تجمع لك دنياك وآخرتك» .

ومن جوامعه ﷺ :

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً .

فقال : ألا أدلكم على مايجمع ذلك كله ؟ تقول : اللهم إنا نسألك من خير ماسألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر مااستعاذ منه نبيك محمد ، ﷺ ، **وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولاحول ولاقوة إلا بك »ا هـ .**

اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال والأهواء » .

اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى » .

عن شهر بن حوشب ، قال : « قلت لأم سلمة رضى الله عنها : **يأم المؤمنين** ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذ كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه : يامقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك »ا هـ .

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، **واجعل الموت راحة لى من كل شر** » .

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

« اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ؛ واجعل لى نوراً » .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ومن أدعيته ، صلوات الله عليه فى الصلاة :

« عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه – أنه قال لرسول الله ﷺ : **علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى .**

قل : قال : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ،

فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ؛ إنك أنت الغفور الرحيم » .

« وكان صلوات الله عليه يقول بين السجدتين : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى » .

عن معاذ رضى الله عنه أن الرسول ﷺ أخذ بيده وقال : يامعاذ والله إنى لأحبك ، ثم أوصيك : يامعاذ ، لاتدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وعند الإفطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ؛ إنك أنت السميع العليم » .

عند الكرب :

« ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث » .

وعند الكرب أيضاً :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما إذا كان الكرب شديداً فيحسن أن يكرر الإنسان دعاء الرسول ﷺ عند عودته من الطائف ، وهو من روائع بيانه ، ودقيق مناجاته :

« اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، **ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد** يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة — من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولاقوة إلا بك » .

وإذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين .

« ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل ديناً أداه الله عنك ؟ قل اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، واغننى بفضلك عمن سواك » .

وعند الخروج من البيت .

« عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قال إذا خرج من بيته : باسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولاقوة إلا با لله – يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

وعند النوم واليقظة .

« إذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا .

وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وعند الأكل :

« الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » .

وعند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ماصنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له » .

وإذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهى المجلس ، ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وعندما يودع شخصاً :

« كان رسول الله ﷺ ، يودعنا فيقول : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » .

الفصل الثامن

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

من هديه صلوات الله عليه فى سبب بعثته .

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »

« بعثت بالحنيفية السمحة » ا هـ .

أما هو صلوات الله عليه فإنه رحمة مهداة إلى العالم .

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » .

« تعلمون أنى رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من اتبعوه عند الله ، ووضع أمثال أبى جهل وأتباعه من المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفى ميزان التقوى . . على أنه :

« مامن شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذىء »

والأخلاق لا وزن لها بدون الإخلاص ، ومن هديه صلوات الله عليه فى ذلك ! « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

« إن الله لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن إلى قلوبكم » .

« دع مايريبك إلى مالا يريبك ؛ فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » .

قوله : يريبك : هو بفتح الياء وضمها ، ومعناه : أترك ماتشك فى حله واعدل إلى مالاتشك فيه » .

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه – رجلٌ استشهد فأتى به ، فعرفَّه نعمه فعرفها .

قال فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ؛ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ؛ قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ فقد قيل ؛ ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل ؛ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ومن هديه فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» .

ومن المنكر : السبع الموبقات :

اجتنبوا السبع الموبقات :

قالوا : يارسول الله ، وماهن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات ، المؤمنات الغافلات» متفق عليه . الموبقات : المهلكات .

ومن هديه صلوات الله عليه فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

«لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه» .

« لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ؛ ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم »

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان : يشد بعضه بعضاً »

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه ، وماله » .

« عن أبى بكر ، رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، قال فى خطبته يوم النحر بمنى ، فى حجة الوداع : إن أموالكم وأعراضكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ »

« سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » .

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

« المسلم أخو المسلم : لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ! »

« المسلم أخو المسلم : لايظلمه ، ولايسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة »

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه »

« ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » .

« وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم

إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

« ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ا . هـ .

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه » .

عن أبى هريرة عن النبى ، ﷺ : « أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية ؛ قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله تعالى ؛ قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

- **عن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة :** يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدى فلاناً : مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟

يابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟

يابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى ؟ قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان ، فلم تسقه ! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟

ومن هديه صلوات الله عليه فى العلم :

« من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ؛ حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على

سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »

وبالنسبة للمرأة :

« لايخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولاتسافر المرأة إلا مع ذى محرم . فقال له رجل : يارسول الله ، إن امرأتى خرجت حَاجَّة ، وإنى كُتبت فى غزوة كذا وكذا ، قال : انطلق فحج مع امرأتك » .

« لايخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » .

ومن هديه صلوات الله عليه وسلامه فى الجهاد :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أفضل الجهاد : كلمة عدل عند سلطان جائر »

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو – مات على شعبة من النفاق » .

« قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى ، وإيمان بى وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر وغنيمة ، والذى نفس محمد بيده ، مامن كَلْم يُكلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم ، وريحه : ريح مسك ، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لأجد سعة فأحملهم ، ولايجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله ، فأقتل ، ثم أغزو فأقتل »

« والكلم الجرح »

الفصل التاسع

من توجيهات القرآن الكريم

١

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

(لقد مَنَّ الله على المؤمنين ؛ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم : يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين)

وآيات القرآن كثيرة فى هذا المعنى تؤكد كلها أن بعثة الرسول ﷺ كانت نعمة من نعم الله العظمى من الله سبحانه على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى إنما هو منة كريمة من لدن رب كريم :

ذلك أن هذا الرسول ، ﷺ إنما هو لسان صدق فى تبليغ آيات الله ، فهو يتلوها على المؤمنين ، إنه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ، ووعاها وتشربتها روحه ، فانطبع بها وعاشها ، ومن أجل ذلك كان هذا الرسول ﷺ مصدر تزكية لهم . إنه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح – من أجل ذلك – مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسى للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ، ويحياها : فهو يبشر بها بقوله ، أو بتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها ، وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب : إنه لايتلو فحسب ، وإنما يعلم أيضاً ، إنه يشرح ويفسر ، ويطبق ، ويقوّم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا ، إنه يعلم القرآن .

وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به ، وبعد أن أصبح هو قرآناً ، لقد أصبح فكره قرآناً ، وأصبحت عواطفه قرآناً ، وأصبحت إرادته قرآناً !

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأخصره حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت رضوان الله عليها : «كان خلقه القرآن » .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

وما كان يتأتى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها – إنما هى كلمة بديهية عند كل متبصر : فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج لو لم تطبق فعلاً ، ولو لم تتحقق واقعياً ، وكان لابد من أن تتحقق بالفعل ، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادئ : تتمثل فيها ذاتياً . وتتمثل فيها من جهة تطبيقها على الغير ، وقيادة الغير إلى الأخذ بها فى صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الأمر كذلك لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ .

بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق – كما يحب الله سبحانه لبنى الإنسان – قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم ﷺ ، وحققها فى ذاته ، وحققها فى مجتمعه : حققها سلوكاً ، وحققها واقعياً هو فى نفسه على أكمل مايكون التحقيق تطبيقاً فى مجتمعه على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع .

ونقول : على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع ؛ لأن لكل نظام من النظم حداً أدنى لايتأتى أن يكون النظام بدونه ، وحداً أسمى يتسامى نحوه المخلصون .

لقد تحققت الصورة الإسلامية فى حدها الأسمى فى الرسول ﷺ ، وكان بذلك – بنص القرآن – أول المسلمين .

وترسم الآيات القرآنية .

كيف ؟ ولم كان الرسول ﷺ أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

(قل : إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى ، لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين)[1]

لقد كانت أعماله ، وحياته كلها ، بل ومماته ، لقد كان كيانه كله – حركة وسكوناً ، حياة وموتاً ، لله رب العالمين ، فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لاينزل عن حدها الأدنى فى آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الإسلامى بالفعل :

---

[1] سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ – ١٦٣ .

ولقد انتفى بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا فى الماضى . أو يرون فى الحاضر أن الإسلام مبادئ لاتطبق . مبادئ نظرية . مبادئ خيالية يستحيل تطبيقها .

لقد تحقق الإسلام بالفعل : فوجد مجتمعاً أسلم نفسه لله . وإن مجتمعاً يسلم نفسه لله لايتأتى أن تتمخض الإنسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذى وجد إنما كان ثمار جهاد الرسول ﷺ وكفاحه فى أن يخرج بالفعل الصورة التى أوحاها الله إليه : لقد كان أثراً لتلاوة الرسول ﷺ آيات الله ولتزكية الرسول ﷺ لمن حوله . بمثله القرآنى . ولتعليمه صلوات الله عليه القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله ﷺ القرآن . وامتلأت به . وصفت بصفائه وتزكت به . واستنارت بنوره . ففاضت بالحكمة : أثراً من آثار الهداية التامة . ونتيجة للنور يغمر القلب . وللسناء يتلألأ فى الفؤاد : فكان الرسول . ﷺ يعلم الكتاب . ويعلم الحكمة . وما الحكمة إلا أحاديث الرسول ﷺ ينير بها قلوباً . ويرشد بها عقولاً . ويقود بها عباد الله إلى الله . وكما أن الكتاب من عند الله فإن الحكمة أيضاً من عند الله . يقول الله تعالى :

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة. وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)[1]

وما كان رسول الله . ﷺ ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى : فآيات الله يتلوها . وكتاب الله يعلمه . والحكمة التى أنزلها على قلبه يعظ بها .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

فذكر الله الكتاب . وهو القرآن وذكر الحكمة . فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ماقال : والله أعلم .

– لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة . وذكر الله منّة على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز – والله أعلم – أن يقال : الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله .

(١) سورة النساء آية : ١١٣ .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله .

لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به .

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلاً على خاصه وعامه ، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

هذه الصورة التى ترسمها الآية الكريمة – التى صدرنا بها هذا المقال – هى الصورة التى تمناها سيدنا إبراهيم ودعا الله ، سبحانه حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل فقال عليه السلام .

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)[١]

ولقد صادفت دعوة سيدنا إبراهيم ماقدره الله أزلاً ، لقد وافقت التقدير الإلهى الأزلى الذى أراد سبحانه به أن يكمل الدين ، ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان هو الدين الأزلى الخالد الذى لادين سواه ، والذى يرضاه الله ولايرضى غيره وهو الإسلام :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)[٢]

(إن الدين عند الله الإسلام)[٣]

ولايتأتى فى عرف المنطق ، وفى منطق الحق ، وفى بداهة العقول – أن يكون الدين الخالد شيئاً آخر غير إسلام الوجه لله .

ومادام الرسول ﷺ أول المسلمين ، ومادام الدين عند الله هو الإسلام – فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق : إنه وصل إلى الدرجة التى سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره ، وسبق بها من سيأتى بعد ، إنه أول المسلمين فى الماضى البعيد ، والماضى الذى يبتدئ منذ بدء الإنسانية .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٢٩ .

(٢) سورة المائدة آية : ٣ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٩ .

ومامن شك فى أن آدم عليه السلام كان مسلماً ، ولكنه لم يكن أول المسلمين ، ولقد كان نوح مسلماً ، ولكنه لم يكن أول المسلمين ، وهكذا كان الأنبياء جميعاً ، صلوات الله وسلامه عليهم من المسلمين ، ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين : وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين ؛ لأن الدين الذى جاءوا به صلوات الله عليهم وسلامه – وإن كان إسلاماً – إن الصورة الكاملة التامة للإسلام إنما هى القرآن :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)[١]

ويقول سبحانه : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم)[٢]

وهو أول المسلمين فى الحاضر ، وهو أولهم فى المستقبل إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وإلى مابعد ذلك من أيادى الله السرمدية ، صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله .

٢

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الإسلامية وعن طابع الرسول ﷺ :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[٣] .

لقد كان إرسال الرسول ﷺ رحمة إذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وكان إرساله رحمة إذا نظرنا إلى شخصيته يقول صلوات الله وسلامه عليه :

(إنما أنا رحمة مهداة)

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث الذات .

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه إلى الرحمن رسالة ، وينتسب إلى الرحمن صفات ، وكان ينتسب إلى الرحيم رسالة ، وينتسب إلى الرحيم صفات ،

---

(١) سورة المائدة آية : ٤٨ .

(٢) سورة الزمر آية : ٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .

إنه رسالة وصفات يسير فى حياته بسم الله الرحمن الرحيم مبشراً الله الرحمن الرحيم . إنه نبى الرحمة وإنها رسالة الرحمة ، والله سبحانه وتعالى قد ربى رسوله على عينه ، واصطنعه لنفسه ، فنشأه على الرحمة ، فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده .

وإننا إذا أردنا تعبيراً مجملاً جامعاً لمعانى الرحمة التى اتصف بها نبى الرحمة فإننا نجده فى وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول ﷺ حينما فاجأه الوحى وحدثها به وقال لها : «لقد خشيت على نفسى» .

فقالت رضى الله عنها فوراً :

كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

إن هذا الوصف الصادق للرسول ﷺ إنما يعبر فى كل جملة من جمله عن الرحمة وهو وصف اتسم به الرسول ﷺ طيلة حياته والآية القرآنية :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[1] لاتخصيص فيها ، لا من ناحية نوع الرحمة ، ولا من ناحية موضوع الرحمة ، ويشرح هذه الآية فى شمولها وعمومها ، يشرحها فى دقة وفى عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى : لقد كان الرسول ، ﷺ ، يتحدث عن الرحمة ، ويدعو إليها ، ويعرف بمنزلتها من الدين ، فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : «إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا»

فلم يُرض هذا القول رسول الله ﷺ لإنه فهم قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عامًّا شاملاً ، إنه تقييد للمطلق ، ولذلك رد عليه الرسول ، ﷺ ، بقوله : «ماهذا أريد إنما أريد الرحمة العامة»

وما من شك فى أن من الرحمة – رحمة الأزواج ، والأولاد ، والأهل وقد حث على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن ماأراده الرسول ﷺ إنما هو أن تتغلغل الرحمة فى الكيان الإنسانى كله : حتى تصبح ، وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته ، فيكون الإنسان وكأنه قبس من

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٧ .

الرحمة الإلهية : ينثرها إذا سار ، وينثرها إذا جلس ، وينثرها أينما كان ، وينثرها حينما حل .

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية : رحمة للعالمين .

ولقد حقق الرسول ﷺ ، هذا الطابع بقوله ، وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة ، وهى طابع للرسالة الإسلامية هى طابع تصرفاته . وانظر إلى الحادثة التالية الحادثة التى نزل فيها قوله تعالى (ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة)[1] وهى لما هزم الله المشركين يوم بدر ، وقتل منهم سبعون وأسر سبعون استشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليًّا فقال أبو بكر : يانبى الله هؤلاء بنو العم ، والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ : ماترى يابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه ، وتمكِّن عليًّا من عقيل ، فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه : يعنى العباس ، فيضرب عنقه ؛ حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة : « أى ميل للمشركين » .

أما رأى الرسول ﷺ فقد كان معروفاً ، يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه ، وعرف صلة هذا الطابع بطابع الرسالة الإسلامية ، إنه أخذ الفدية ، ولقد كان أبو بكر ، رضى الله عنه أمثل الناس فى الاقتداء برسول الله ﷺ ، فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ﷺ .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه . بل زاد عليه حينما خير رسوله ، فيما بعد بأنه – إذا وضعت الحرب أوزارها – له أن يمن وله أن يأخذ الفداء : (فإما منا بعد وإما فداء)[2]

---

(١) سورة الأنفال آية : ٦٧ .

(٢) سورة محمد آية : ٤ .

وقبل بدر أخذ الرسول ﷺ الفداء ، فقد فادى فى سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام .

فلما كانت بدر سار الرسول ﷺ على سنته ، وتصرف مستلهماً طابع الرسالة التى أرسله الله بها ، ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية ، وأخذ فى تقدير الفدية وزناً وكيلاً وقيمةً ومقداراً وكماً وكيفاً . وأخذ فى تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر . . إن بعض الصحابة نظر إلى المسألة نظرة مادية ، فنزل قول الله ، سبحانه وتعالى مصححاً الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الأمور فى وضعها الصحيح ، ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلهى .

يقول الخطيب القسطلانى فى كتابه « المواهب اللدنية » فى ذلك : « فيه بيان ماخص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكأنه قال : ما كان لنبى غيرك » ا هـ .

ويقول القاضى بكر بن العلاء : « أخبر الله تعالى نبيه فى هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء » ا هـ .

والتوجيه الإلهى فى خاتمة رسالات السماء أنها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها ، وما كان لنبى من قبل نبى الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض فلما كانت رسالة الرحمة ، ولما كان نبى الرحمة – أباح الله له التصرف بحسب الرحمة ، وهو الفداء ، ثم زاده تكريماً على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفداء .

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لاترى ولاتحس ولاتشعر بالجانب المادى ، ولكنكم ياهؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياساً ، إنه ليس بمقياس : إن المادة ليست فى موازين الله مقياساً ، فإن الله يريد الآخرة ، ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله ﷺ : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)[1] وإنه لمن افضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل : « أسوة »

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

وحسب إنما قال : « أسوة حسنة » ، وقال سبحانه .

(أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[١]

ثم إن الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ، وما كان أيسر ذلك ، ولم ينقض الله سبحانه . ما أبرمه رسوله المبرأ عن أن يسير إلا على بصيرة ، والمنزه عن أن يهدى إلا إلى الصراط المستقيم صراط الله .

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول ، ﷺ ، على أن يكافح طيلة حياته فى غير فتور ، ولا هوادة لهداية الإنسانية وإسعادها ، لقد كان ﷺ ، يشق على نفسه فى سبيل ذلك ويحملها من الأمور مالاتطيق .

حتى لقد قال الله له :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)[٢]

وقال سبحانه : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً)[٣]

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس ، ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردى فى نار يتهافتون على الاحتراق فيها ، ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمة التى كان يستعملها الرسول ﷺ فى سلوكه مع الناس . وهى — وإن كانت خاصة برجل معين ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم .

جاءه أعرابى يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ ، ثم قال له مستفسراً متوددا : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ؛ فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ؛ فأشار إليهم الرسول ، ﷺ أن كفوا ، ثم قام ، ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده ، ثم قال : أحسنت إليك ؟

---

(١) سورة الأحزاب اية : ٢١ .

(٢) سورة فاطر آية : ٨ .

(٣) سورة الكهف آية : ٦ .

فقال الأعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ؛ فقال له النبى ﷺ : إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم : ماقلت بين يدى ؛ حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك .

وتحدث الأعرابى إليهم ، وطابت أنفس أصحاب رسول الله ، ﷺ ، بقول الأعرابى . فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع :

« إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بينى وبين ناقتى ؛ فإنى أرفق بها وأعلم ؛ فتوجه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قدام الأرض ، فردها هوناً هوناً ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » ا هـ .

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ رحيمة حتى مع الأعداء

لقد قيل له يوم أحد ، وهو فى أشد المواقف حرجاً : لو لعنتهم يارسول الله ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت رحمة ، ولم أبعث لعاناً »

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهداية والصلاح ، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم - بالتعاطف فيما بينهم : سئل مرة : أى الناس أحب إليك ؟ فقال : أنفع الناس للناس ، وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : إدخال السرور على المؤمن . وقال : أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وألطفهم بأهله .

وكانت رحمته صلوات الله وسلامه عليه عامة ، شاملة ، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال - يحث على الشفقة بالحيوان - : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج منها ، فإذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى من شدة العطش) فقال : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له قالوا

يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : (نعم) لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر .

وقال ﷺ : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها ، فلاهى أطعمتها وسقتها ، ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض »

لقد كان ﷺ رحمة وكان رحمة للعالمين .